جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
دراسات فى الإسلام

فلسفة الحرب فى الإسلام

تأليف
الأستاذة الدكتورة / نادية حسنى صقر

القاهرة
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ

بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ

أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ

وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا

وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾

سورة الحج آية ٣٩ ، ٤٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ قام الإسلام ، وحتى تقوم الساعة وهو دين مستهدف والأمة الإسلامية أمة مستهدفة من القوى المعادية من صهيونية وامبريالية وإلحادية وغير ذلك ، وإن كان كثير من هؤلاء وأولئك قد أنصف الاسلام واعترف بسموه وعظمته . طالما وُجهت الاتهامات إلى الاسلام ورسوله . ومن حين لآخر تطالعنا وسائل الاعلام المناهضة للإسلام بالطعن فى عقيدتنا السمحاء وملتنا الغراء .

ومنذ شهور وصدى يتردد ، فحواه أن الاسلام دين حرب ودين دماء ، وأن المسلمين إرهابيون وكأنهم سبب مشاكل الدنيا ، وكأنهم الذين يعبثون بأمن العالم ويهددون سلامه . وإن أمم الأرض تتوق إلى السلام شوقا وتحن إليه . لتنعم بالرخاء والأمان وكأنما المسلمون هم سبب كوارث البشرية ومآسيها الطاحنة .

ومن قبل كثيرا ما كتبوا عن الفتوحات الاسلامية وصوروا الاسلام منتشرا بحد السيف . وجعلوا الأسباب الاقتصادية هى الدافع لتلك الحركة . نسوا أن الاسلام دين دعوة وأن المسلمين ما خرجوا إلا لينشروا دينهم فى الأرض . عمدوا إلى تشويه صورة الاسلام والمسلمين ، كالوا الاتهامات له كيلا دون أن يكلفوا

أنفسهم مؤونة دراسة ذلك الدين الحنيف ، وتلك الدعوة الغراء ، ودراسة عقيدته ، ومبادئه ، ونظمه بما فى ذلك نظامه العسكرى .

وسواء كانت تلك الاتهامات وصور التشويه وقلب الحقائق عن قصد وعمد أم عن جهل وسوء فهم فإلى هؤلاء وأولئك ، إلى الذين يرون فى الاسلام ، تهديدا لأمن العالم وسلامه . . وإشاعة الفوضى والذعر فى أرجائه . . إلى من لم يروا فى الاسلام غير السيف . . إليهم جميعا أكتب تلك الصفحات لأوضح نظرة الاسلام إلى الحرب . . وإلى السلام . .

إننى أدعو كل قلب ينبض وكل عقل يفكر على اختلاف العقائد والنحل . . المفكرين والفلاسفة ودعاة الاصلاح ومحبى السلام . أدعوهم جميعا أن يدرسوا مبادىء الاسلام وتعاليمه فى الكتاب والسنة الصحيحة بحيدة مطلقة وموضوعية حقة . . بعيدا عن أى لون من ألوان التعصب . . دراسة عالم مدقق ومفكر نابه ، ولسوف يدركون أن نظم الاسلام كفيلة بتحقيق ما تصبو إليه البشرية من سعادة . . وأن نظم الاسلام هى النظم المثالية للاجتماع والاقتصاد والعدل والسلام . . عودوا للماضى وقلبوا صحائفه . . اقرأوا التاريخ ستجدون أن أنصع صفحاته وأكثرها نورا وإشراقا إنما كانت حين سادت نظمُ الاسلام .

الدكتورة / نادية حسنى صقر

١٩٨٩ م

الفصل الأول

الدعوة إلى الإسلام في مكة

ثلاث سنوات مضت ورسول الله ﷺ يدعو إلى الاسلام سراً[١] ولقد كانت تلك المرحلة ، مرحلة إعداد للقيادات التى ستتحمل مع النبى ﷺ عبء نشر الدعوة والتمكين لها .

ثم أمره الله تعالى بإظهار دينه حين قال :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[٢]

وقال تعالى :

○ ———— ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾[٣]

كما قال تعالى :

○ ———— ﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ ﴾[٤]

فى تلك الآيات أمر واضح صريح من الله تعالى بالجهر بالدعوة . ويبدأ الجهر بعشيرته ﷺ وأقاربه يدعوهم للايمان بالله ، ويمضى ﷺ بالدعوة لا يبالى بالمستهزئين فالحق الأكبر من ورائها ، والله بالغ

---

(١) تاريخ اليعقوبى جـ٢ ص ٢٤ .
(٢) سورة الحجر آية ٩٤
(٣) سورة الشعراء آية ٢١٤ - ٢١٥ .
(٤) سورة الحجر آية ٨٩ .

أمره . وينفذ الرسول تعاليم ربه ويلاقى من قومه ما يلاقى . ولكن الدعوة تسير فى طريقها المرسوم .

كانت الخطوة التالية حين نزل عليه الوحى بقوله تعالى :

○ ـــــــــــ ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (١)

أمر وتوجيه ربانى بالتدرج فى مراقى الدعوة والسير بها قدما وتوسيع دائرتها خارج حدود مكة والمناطق المحيطة بها .

ويبلغ الرسول عن ربه تعالى فكانت الخطوة التالية حين نزلت عليه الآية التالية :

○ ـــــ ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ (٢)

تبدأ السورة بتلك الآية لتبين وظيفة الرسول ﷺ وما أوتيه من كتاب ، تلك الوظيفة هى إخراج الناس من الظلمات إلى النور أى إخراج البشرية كلها من ظلمات الكفر والجهل والوهم والخرافة ، وظلمات الأوضاع والتقاليد ، وظلمات الحيرة فى تيه الأرباب المتفرقة(٣) . لتخرج البشرية من هذه الظلمات إلى النور الذى يكشف . فالايمان نور تشرق به النفس فترى الطريق واضحة إلى الله وإلى الحق .

---

(١) سورة الشورى آية ٧ تفسير ابن كثير . جـ ٤ ص ١٠٧

أول سورة إبراهيم الصابونى صفوة التفاسير المجلد الثانى ص ٩٠ وما بعدها .

(٣) سيد قطب : ظلال القرآن ٤ ص ٢٠٨٥ .

فى هذه الآية توجيه إلى دور العمل على المستوى الانسانى والعالمى فالاسلام دعوة عالمية .

وامتثل ﷺ لأمر الله تعالى فجهر بالدعوة تبليغا للرسالة على كل مستوياتها ولم تكن مهمته ﷺ سهلة ميسورة . لقد عاداه قومه حين ذكر آلهتهم وعابها . ويوضح القرآن الكريم موقف المجتمع المكى المشرك من دعوة التوحيد ونظرة هذا المجتمع لمحمد بقوله :

﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ ﴾ (١)

لقد أجمع القوم على خلافه وعداوته وإيذائه ومقاومته(٢) دعوته لأسباب قومية وشخصية . ومضى ﷺ فى تبليغ الدعوة لا يرده عنها شىء ومضى عمه أبو طالب يحنو عليه ويذود عنه .

ثارت ثائرة قريش ونزل غضبهم على كل من أسلم من أبناء قبائلهم وليس له من يمنعه . وثبتت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يحبسونهم ويعذبونهم(٣) ، منعوهم الطعام والشراب ، عذبوهم بالضرب وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر(٤) وتوضح كتب السيرة ما فعله بنو مخزوم بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه التى قتلوها وهى تأبى إلا الإسلام . ويذكر التاريخ كيف كان أمية بن خلف إذا حميت الظهيرة يخرج ببلال الحبشى إلى بطحاء مكة ويأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له « لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر

---

(١) سورة ص آية ٥ .

(٢) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٤ .

(٣) الطبرى : الأمم والملوك جـ ٢ ص ٣٢٧ - ٣٢٨ . ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٤٣ .

(٤) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٤٢ وما بعدها .

بمحمد وتعبد اللات والعزى » ، فيقول بلال وهو فى ذلك البلاء : « أحد أحد » . وظل بلال فى العذاب حتى أعتقه أبو بكر رضى الله عنه مع نفر غيره[1] .

وتستمر قريش فى إيقاع الأذى والعذاب بالمسلمين لتفتنهم[2] عن دينهم ولتحول بينهم وبين الاسلام . ولما رأى الرسول ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ووجد أنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه »[3] فكانت هجرة الحبشة إذ فر المسلمون بعقيدتهم مخافة الفتنة واضطروا لترك ديارهم وأموالهم[4] .

ولما رأت قريش الإسلام يفشو وينتشر وأن المسلمين تقوَّوا بإسلام حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب . ولما عاد إليهم عمرو ابن العاص ، وعبد الله بن أمية من عند النجاشى بما يكرهونه من منع المسلمين عنهم وأمنهم عنده ، ائتمروا فى أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على أن لا يُنكحوا بنى هاشم وبنى المطلب ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئا فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة[5] . وظل هؤلاء محاصرين بالشعب نحوا من ثلاثة أعوام .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٢) الطبرى : الأمم والملوك جـ ٢ ص ٣٢٧ - ٣٢٨ . ابن فهد : اتحاف الورى بأخبار أم القرى جـ ١ ص ٣٥٤ .

(٣) سيرة ابن هشام : جـ ١ ص ٣٤٣ . ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٥١ .

(٤) الطبرى : الأمم والملوك جـ ٢ ص ٣٢٩ .

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٥٩ .

مات أبو طالب وخديجة فى عام واحد ، فى العام العاشر من النبوة ، ونالت قريش من الرسول آنذاك ما لم تنله فى حياة عمه أبي طالب[1] ، ويشتد أذى قريش بالنبى ﷺ وبالمسلمين حتى خرج ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف التى خيبت آماله فيها فرفضوا دعوة الاسلام وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم[2] ويذكر ابن هشام[3] والطبرى[4] أن الرسول ﷺ خرج وحده إلى الطائف بينما يذكر ابن سعد[5] وابن الأثير[6] والمقريزى[7] أن الرسول قد صحب معه فى رحلته إلى الطائف مولاه زيد بن حارثة .

التقى الرسول ﷺ بزعماء الطائف إخوة ثلاثة ، عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب أبناء عمرو بن عمير ، ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الاسلام . فكانت ردودهم عبارات السخرية والاستهزاء فقال أحدهم يمرط[8] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ! وقال الثالث والله لا أكلمك أبدا إن كنت رسول الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك : ويئس النبى ﷺ منهم فتركهم[9] .

---

(١) سراج الدين : محمد رسول الله ص ١٨٩ . أبو الحسن الندوى : السيرة ص ١٢١ .
(٢) الطبرى : الأمم والملوك جـ ٢ ص ٣٤٥ .
(٣) السيرة جـ ٢ ص ٦٠ .
(٤) تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ٣٤٤ .
(٥) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٩٥ .
(٦) الكامل جـ ٢ ص ٦٣ .
(٧) إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٧ .
(٨) يمرطه : أى ينزعه ويرمى به .
(٩) نادية حسنى : الطائف فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام ص ٨١ - ٨٥ .

ويقدم ابن هشام والطبرى صورة مؤلمة لتلك المعاملة القاسية الغادرة التى عاملت ثقيف بها النبى الكريم فروى المؤرخان « أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط العتبة وشيبة ابنى ربيعة . ولم يدخل النبى ﷺ مكة إلا فى جوار المطعم بن عدى[1] » ويصف الطبرى حالة النبى بعد عودته قائلا : « ثم قدم رسول الله ﷺ مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به »[2] .

لاقى النبى ﷺ والمسلمون كثيرا من ألوان الأذى والاضطهاد والتعذيب ذكر ابن هشام والطبرى كثيرا منه . وكان قد اعتنق الاسلام نفر من ذوى القوة والجاه أمثال حمزة بن عبد المطلب ، وعمر ابن الخطاب وغيرهما وخدثتهم نفوسهم برد الظلم[3] .

ودفع أذى المشركين عن المسلمين ولكن النبى ﷺ كان يرفض ذلك ويمنعهم قائلا : « لم أومر بقتال والتزم المسلمون بسياسة الصبر وتحمل الأذى تنفيذا لأوامر النبى ﷺ ، صاحب السلطة التشريعية فى هذا العهد ، وما كان لأحد غيره من المسلمين أن يستقل بتشريع أو أى حكم[4]

استمر المسلمون يتحملون أذى الكفار ، ومضى الرسول ﷺ ينشر العقيدة ويبلغ الرسالة بالحكمة والموعظة الحسنة والاقناع العقلى وكيف لا ، وهو المبعوث « رحمة للعالمين »[5] قال تعالى :

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ٣٤٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٩ .

(٣) الجصاص : احكام القرآن جـ ١ ص ٢٥٧ .

(٤) عبد الوهاب خلاّف : خلاصة تاريخ التشريع الإسلامى ص ١١ .

(٥) سورة الأنبياء آية ١٠٧ . السيوطى : الخصائص الكبرى جـ ٢ ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

○ ———— ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ[1] ﴾

هكذا تتقدم الدعوة الاسلامية فى طريقها السلمى ولقد كانت الفترة المكية مرحلة بناء للإنسان المسلم ، أو هى مرحلة بث الدعوة إلى توحيد الله وتحويل وجوه الناس عن الأوثان والأصنام وكل صور الشرك ولذلك نجد السور المكية من القرآن مثل يونس والرعد ويس والحديد والفرقان خالية من آيات الأحكام ، إنما أكثر آياتها تتناول العقيدة والخلق والعبرة من سير السابقين . كما أنها كانت مرحلة لاعداد القيادة التى تتحمل مع النبى نشر الدعوة الإسلامية العالمية .

إن السور المكية ليس فيها شىء من التشريع التفصيلى بل معظم ما جاء فيها يرجع إلى الهدف الأول من الدين وهو توحيد الله تعالى وإقامة البراهين على وجوده والتحذير من عذابه ، ووصف يوم الحساب وأهواله ونعيمه والحث على مكارم الأخلاق ، وضرب الأمثال بما أصاب الأمم السابقة حين خالفت دعوة أنبيائها[2] .

أثنا عشر عاما وبضعة أشهر والرسول ﷺ ، يتحمل أذى الكفار . لقد لقى من المشركين صنوفا وألوانا من الأذى[3] والكيد فمن ذلك ما كان يلحقه هو ﷺ خاصة من أبى جهل وعقبة بن أبى معيط . ومنها ما كان يلحق أصحابه من المسلمين إذ كان المشركون يصدون الناس عن الاستماع إلى القرآن وإجابة الدعوذ بما كانوا يلفقونه من الأكاذيب

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

الخضرى : تاريخ التشريع الإسلامى ص ١٧ .

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسى جـ ١ ص ١٠٥ .

التى تكفل القرآن بسردها والرد عليها . كل ذلك والرسول ﷺيقول : (اللهم إهد قومى فإنهم لا يعلمون) وكان يأمر المسلمين بالصبر . قال تعالى :

○ ـــــــــــــ ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١)

وقال :

○ ـــــــــــــ ﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٢)

وقال :

○ ـــــــــــــ ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ (٣)

وقال :

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٤)

وقال :

○ ـــــــــــــ ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٥)

---

(١) سورة يونس آية ١٠٩ .
(٢) سورة هود آية ٤٩ .
(٣) سورة الكهف آية ٢٨ .
(٤) سورة الروم آية ٦٠ .
(٥) سورة غافر آية ٥٥ .

وقوله :

○ ———— ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ (١)

وقوله :

○ ———— ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٢)

هكذا أكد القرآن ضرورة التحلى بالصبر فى تلك الفترة المكية وهكذا تجنب الرسول ﷺ الصدام المسلح بين المسلمين وبين أعداء الدعوة ، ولم يسمح للمسلمين بالدفاع عن النفس ، فكانت سياسة حكيمة أتاحت فرصة كافية لابراز معالم الدعوة وحقيقة الإسلام وفهم مبادىء ذلك الدين الحنيف .

أتبع الرسول ﷺ فى تبليغ الدعوة أحكم الوسائل وأعظم المناهج التى تعتمد على الرفق والمودة والصبر على تحمل الأذى من الكفار ، أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة كما أمره الله ، وكيف لا وقد وصفه الله تعالى بأنه على خلق عظيم ووصفه القرآن بأنه يهدى للتى هى أقوم .

إن الدعوة الإسلامية هى فى الواقع منهج حياة يرتقى بالإنسان ولما كانت دعوة للخير والسمو الأخلاقى والنقاء الوجدانى والعلاقات الإنسانية الرفيعة تهدف إلى نقل البشرية من الظلمات إلى النور . بلغها الرسول ﷺ كما أمره الله :

---

(١) سورة ق آية ٣٩ .

(٢) سورة الطور آية ٤٨ .

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (١)

استخدم أسلوب الحجج والبراهين والأدلة والاقناع العقلى ، ومخاطبة العقل بالتدبر والتفكر .

هكذا صبر الرسول على تحمل الأذى (٢). ولم يتخذ العنف أسلوبا يرد به أذى قريش ، كما أمر المسلمين بالصبر ومنعهم من الرد على العدوان بمثله نحوا من ثلاثة عشر عاما تقريبا ذاق فيها المسلمون بمكة كل ألوان التعذيب والأذى من المشركين ، وكلما هم بعضهم برد العدوان بمثله ، يقول لهم الرسول : أصبروا فإنى لم أومر بالقتال .

أمرهم الرسول بالصبر استجابة وامتثالا لقوله تعالى :

○ ——— ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ ﴾ (٣)

وقوله تعالى :

○ ——— ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٤)

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٢) السيوطى : الخصائص الكبرى جـ٢ ص ٢٤٠ وما بعدها .
ابن الأثير : الكامل جـ٢ ص٤٧ وما بعدها .

(٣) سورة المائدة آية ١٣ .

(٤) سورة النحل آية ٨٢ .

وقوله :

○ ———— ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ (٦٣) [١]

وقوله :

○ ———— ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [٢]

وقوله :

○ ———— ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [٣]

كان كفار قريش يلبسون المستضعفين من المسلمين دروع الحديد ثم يصهرونهم فى الشمس وكانوا يلصقون ظهر بعضهم بالرضف حتى ذهب لحم متنه[٤].

أخذ الرسول ﷺ يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبى مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به[٥]. حتى كانت بيعة العقبة

---

(١) سورة الفرقان آية ٦٣ .
(٢) سورة فصلت آية ٣٤ .
(٣) سورة الحجر آية ٨٥ .
(٤) كرد على : الادارة الإسلامية فى عز العرب ص ٧ . والرضف هو الحجارة المحماة .
(٥) ابن هشام : السيرة جـ٢ ص ٣٤٨ .
نادية حسنى : الطائف فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام ص ٨٥ .

الكبرى[١] . ودخول الأوس والخزرج فى الإسلام ثم هجرة المسلمين إلى المدينة .

أضطر المسلمون إلى الهجرة من مكة إلى يثرب فرارا بعقيدتهم خشية الفتنة ، وخشية الاضطهاد والتعذيب الذى يلاقونه على يد كفار مكه . فر المسلمون بعقيدتهم تاركين أموالهم وديارهم وممتلكاتهم ، ورغم ذلك تثور ثائرة مكه ، فيمنع كفار[٢] قريش كثيرا من المسلمين من الهجرة من مكه إلى يثرب خوفا من ازدياد نفوذهم ونجاح الدعوة خارج حدود مكه واستتباب أمر الاسلام . ويصر المشركون على استمرار العداوة[٣] واستمرار الكيد لهذا الدين ومحاولة القضاء عليه بمحاولة القضاء على تلك الجماعة المسلمة .

إن قوى الشر والضلال تقاوم بشراسة فالمعركة قائمة مستمرة بين الخير والشر ، بين الهدى والضلال ، الصراع قائم بين الايمان وقوى الطغيان ، لذلك فلابد للخير من قوة تحميه وتذود عنه ، لابد من اقامة الدولة الاسلامية التى ستقوم بتطبيق منهج الله فى الأرض .

صار المسلمون فى المدينة أخوانا متحابين فى الله وأصبحت العقيدة هى التى تربط بين النفوس وتسمو على كل رابطة سواها من روابط الدم والنسب والعصبية أو الولاء . أنهم أمة واحدة من دون الناس .

إن تلك الدويلة الإسلامية الناشئة ، وتلك الشعائر والعبادات ، ذلك المنهج وتلك الشريعة لابد لها من حماية تدفع عنها الذين يصدون

---

(١) الطبرى : الأمم والملوك جـ٢ ص ٣٦١ وما بعدها .
(٢) ابن فهد : اتحاف الورى جـ١ ص ٣٥٤ - ٣٩٦ .
(٣) أبو الحسن الندوى : السيرة النبوية ص ١٧٤ .

عن سبيل الله لابد من حماية لحرية العقيدة وحرية العبادة تمكينا لدين الله فى الأرض .

بات من المؤكد أنه لابد من قوة مادية يظهرها المسلمون ، وجهاد صادق مقدس يبذلونه لاعلاء كلمة الله ، واقامة الدولة الأسلامية العالمية[1] ذات المنهج الأسلامى والتى سيقع على كاهلها نقل البشرية من الظلمات إلى النور ، قال تعالى :

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾[2]

فالإسلام رسالة عالمية يجب أن تتم . فى هذه الآية الكريمة أمر صريح بالعمل على المستوى الأنسانى العالمى[3] . ويجب أذن شق الطريق لبناء الحضارة الأسلامية على أسس الفكر الأسلامى . لابد أذن من استخدام القوة ولابد من الجهاد لتحقيق ذلك .

---

(١) الخربوطلى : الإسلام دين عالمى إنسانى ص ١٧ وما بعدها .
(٢) سورة ابراهيم آية ١ .
(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٠٨٥ وما بعدها
الصابونى : صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٩٠ .

الفصل الثاني

عالمية الإسلام

الاسلام دعوة عالمية :

الاسلام دين عالمى يصلح لكل زمان ومكان وعمل الرسول ﷺ على نشر الأسلام بين جميع الناس على اختلاف أممهم وأجناسهم :

قال تعالى :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى :

○ ——— ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٢)

كما قال تعالى :

○ ——— ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٣)

فالدعوة اذن للبشرية جمعاء .

قال رسول الله ﷺ : « **خلق الله الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان شريفا قرشياً** » وبذلك يكون الاسلام قد قرر المساواة التامة بين جميع أتباعه . قال تعالى :

---

(١) سورة ص آية ٨٧ .
(٢) سورة سبأ آية ٢٨ .
(٣) سورة التوبة آية ٣٣ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (١)

هكذا نرى أن الدعوة موجهة لكافة الشعوب . والاسلام يساوى بين الجميع وهو يطلب من البشر الاستجابة لتلك الدعوة ، ولما كان لا يفرق بين جنس وجنس أو أمة وأمة أو فرد وآخر فهو اذن يهدف لنشر التعاون بين البشر جميعاً . ورفض الاسلام الجمود والتعصب والتحزب وأحل محل ذلك فكرة العالمية بأوسع معانيها .

وأكد الاسلام منذ البداية فى حياة النبى ﷺ أنه دين عالمى صالح لكل زمان ومكان وصالح لكل جنس فهو دين الفطرة والفطرة لا تختلف فى انسان عن آخر . وهو بذلك صالح لكل درجة من درجات الحضارة فهو بما فيه من بساطة وتسامح يهدى البشرية ويحقق لها السعادة . فقد قضى الاسلام على كل ألوان التعصب قبلى أو وطنى أو غيره وأحل محل ذلك الانسانية والعالمية بأوسع معانيها . أن ما تنادى به أوروبا اليوم من حقوق الانسان ، والتضامن الجماعى والسلام العالمى . . كل ذلك أقره الاسلام منذ أربعة عشر قرنا .

يدعو الاسلام إلى التآلف والمحبة والتعاون ، ويعلن أن الناس لم يجعلوا شعوبا وقبائل الا ليتعارفوا . وهذه المبادىء هى التى يرددها الفلاسفة والمفكرون والاجتماعيون فى أرجاء العالم فى العصر الحاضر حينما يتحدثون عن حقوق الانسان . مما يؤكد أن القانون الآلهى هو خير القوانين . والاسلام يدعو إلى الإخاء الانسانى ، وإلى التعاون

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

الاجتماعى بين أفراد المجتمع الواحد وبين الشعوب والدول ولا يفرق بين لون ولون ، ولا بين جنس وجنس . فقد جاء عن الرسول ﷺ أن (**الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى**) .

فالناس سواسية بحسب خلقهم الأول وعناصرهم الأولى وأن ليس ثمة تفاضل فى انسانيتهم ، انما يجرى التفاضل بينهم على أسس خارجة عن الانسانية نفسها من حيث كفاياتهم وأعمالهم وما يقدمه كل منهم من عمل . يقوم الاسلام على نظرية اجتماعية تقول أن كافة البشر على وجه الأرض كلهم من سلالة واحدة فالله خلق فى البداية نفسا واحدة وخلق منها زوجها ، وبث فيهما جميع البشر . قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (١)

هكذا يؤكد القرآن أن الأصل واحد وبذلك اعتبر الاسلام الناس جميعا أمة واحدة تجمعها الانسانية . ومادام الأصل واحد فالوحدة شاملة .

وجاء فى سورة البقرة التصريح بأن الإنسانية أمة واحدة ، فقد قرر

---

(١) سورة النساء آية ١ .

أن الناس جميعا أمة واحدة وأن الاختلاف عارض ومنشؤه اختلاف الاهواء . وأن الله أرسل الرسل ليبينوا للناس طريق الهداية . قال تعالى :

○ ———————— ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ (١)

وتؤكد الآيات القرآنية معنى الأخوة والمساواة ، ففى سورة الحجرات قال تعالى :

○ ———— ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ ﴾ (٢)

وفى سورة التوبة يقول تعالى :

○ ———————— ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٣ .

(٢) سورة الحجرات ، آية ١٠

(٣) سورة التوبة ، آية ١١ .

وقال تعالى أيضاً :

○ ـــــــــ ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[1]

الإسلام بذلك قد أبطل العصبية العرقية ، وقرر المساواة والاخاء الإنسانى . كما أن الإسلام لم يعرف نظام الطبقات الاجتماعية الذى كان سائدا فى أوروبا آنذاك . تلك نظرة الإسلام إلى الانسانية فى وقت تنظر المدنية الغربية فيه للانسانية نظرة لا تعدو ذلك الأفق الضيق من العداء الجنسى والقومى . فنظرة الإسلام للانسانية أكثر سموا من نظرة المدنية الغربية اليها . ولو تأملنا فى القول البليغ للرسول ﷺ : (**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**) . إنها بحق دعوة صادقة للمساواة المطلقة والأخوة الإنسانية . ولو نظرنا إلى شعائر الحج والصلاة نجدها تحوى كثيرا من الصور العملية للمساواة ، حسب التصور الإسلامى للانسانية فهو لا يفرق بين انسان وانسان بسبب الجنس أو اللون أو الوطن أو اللغة ، انما التفرقة تأتى نتيجة أعمال وجهود كل فرد ، أخلاقه وغاياته فى الحياة وبذلك يهدف الإسلام إلى تكوين مجتمع عالمى لا يعترف بالحدود الجنسية أو الجغرافية بل يتجاوز ذلك كله فى تسامح ويسر داعيا إلى المساواة والمؤاخاة بين الانسان والانسان .

تقوى الله هى التى أصبحت معيار التفوق والكرامة ، لا اعتبارات

---

(١) سورة آل عمران : آية ١١٣ .

الحسب والقبيلة ، وأساس الترابط بين الجميع أو الرابطة التى تربط بين الجميع هى الشعور بالخضوع جميعا لله الواحد الأحد . وهم بعد ذلك سواء أمام القانون وفى كافة الحقوق المدنية والحقوق العامة كما أنهم سواء فى شئون المسئولية والعبادات والجزاء فالعدالة الإسلامية لها ميزان واحد أومعيار واحد يطبق على الجميع .

ومادامت الدعوة عالمية والرسول عالمى لذلك دعا محمد ﷺ إلى وحدة انسانية بين البشر جميعا وإلى محو جميع الفروق الطبقية والطائفية والعنصرية التى تفرق بين انسان وآخر اللهم الا العمل الذى يحدد مكانة الفرد فى هذا المجتمع الإسلامى الانسانى وفى ذلك قال ﷺ : **(يا أيها الناس ، انما المؤمنون أخوة ، ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم) .**

محمد صلى الله عليه وسلم رسول عالمى :

« محمد صلى الله عليه وسلم » هذا الاسم الكريم الذى تترنم به ملايين الشفاه وله تخفق ملايين القلوب حين تنطق به وتصلى عليه فى اليوم خمس مرات فى صلواتها . تترنم به الشفاه ، وتخفق له القلوب منذ أربعة عشر قرنا أو يزيد . وبهذا الاسم الكريم العظيم ستظل الشفاه تترنم والقلوب تخفق حتى تقوم الساعة فى مشارق الأرض ومغاربها بكل اللغات واللهجات لأنه رسول للانسانية جمعاء .

هل كان محمد نبيا وطنيا . . أم نبيا عالميا أرسل للناس كافة[١] ؟

---

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٣٩ .

وقد رد جولد تسيهر على السؤال الذى أثاره قائلا : « **أعتقد أننا نستطيع الأخذ بوجهة النظر الثانية ولا يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك ، أنه ردد أولا دعوة الله التى أحسها فى قرارة نفسه والرهبة التى شملته من أجل مصير العصاة فى الوسط المباشر الذى تفتح فيه الشعور برسالته النبوية فأدركها وتبين ذلك مما جاء فى القرآن الكريم** :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (١)

ثم قوله :

﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (٢)

ولكن مما لا شك فيه أن نظرته الداخلية قد أمتدت منذ أول رسالة إلى مدى أوسع وأفق أرحب فمنذ البداية كانت فكرته عن رسالته أن الله أرسله ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٣) وهناك جملة تكررت كثيراً فى القرآن وهى وصف التعاليم الالهية بأنها ذكر للعالمين . (سورة يوسف : ١٠٤ ـ سورة الصافات : ٨٧ ـ سورة القلم : ٥٢ ـ سورة التكوير : ٢٧) . فكلمة « **العالمين** » لها فى القرآن دائما معنى عالمى ، فالله رب العالمين وقد جعل ما أراده من اختلاف الألسنة والألوان (آيات ودروسا) للعالمين أذن فالمقصود هو الانسانية بأوسع معانيها .

---

(١) سورة الشعراء : آية ٢١٤ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٩٢ .

(٣) سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .

وهناك نصوص صريحة فى القرآن تدل على أن الله بعث رسوله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا قال تعالى :

○ ـــــــــ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1]

وقال تعالى :

○ ـــــــــ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[2]

وفى موضع آخر يقول تعالى :

○ ـــــ ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾[3]

وفى الحديث أيضا ما يدل على مثل ذلك . ولو مد الله فى عمر رسوله لكان الرسول أول من جهز الجيوش لنشر الدعوة . فلم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب بل للعالم أجمع . ولما لم يكن هناك غير آله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى اليه الناس[4] كافة . ولكى تكون هذه الدعوة عامة وتحدث أثرها المنشود فى جميع الناس وفى جميع الشعوب نراها تتخذ صورة عملية فى الكتب التى أرسلها النبى ﷺ فى السنة السادسة من الهجرة إلى عظماء وملوك

---

(١) سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .

(٢) سورة يس : آية ٦٩ .

(٣) سورة الفرقان : آية ١ .

(٤) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٤٨ .

ذلك العصر . فى هذه السنة أرسل الرسول ﷺ كتبا إلى هرقل قيصر الروم ، وإلى كسرى فارس ، وإلى حاكم اليمن ، وإلى حاكم مصر ، وإلى نجاشى الحبشة يدعوهم إلى الإسلام . وقد أكمل الله للمسلمين دينهم قبيل وفاة النبى ويومئذ وضع هو خطة انتشار الدين .

وفى نحو قرن من الزمان كان علم الإسلام خفاقا بين الشرق والغرب . من الأندلس وغرب أوروبا إلى الهند والتركستان والصين وما ذلك الا تحقيقا لعالمية الدعوة الإسلامية وعالمية رسالة ورسول الإسلام . ولعل ذلك هو ما جعل المستشرق يورروث سميث يقول فى حديثه عن النبى ﷺ : « **من حسن حظ التاريخ أن محمداً أسس فى وقت واحد ثلاثة أشياء من عظائم الأمور ، وجلائل الأعمال ، فانه مؤسس لأمة ، وامبراطورية ، وديانة** »[1] ونحن نقول أن محمداً ﷺ بتأديته رسالة الإسلام وتأسيسه للدولة الإسلامية انما أقام حضارة هى الحضارة الإسلامية .

وهى حضارة اسلامية إذ قام ببنائها وتشييدها واقامة صرحها ، شعوب وان كانت مختلفة من حيث الجنس والعنصر الا أنها جميعا كانت تدين بالإسلام . كان لها مبدأ « وعقيدة » . هى حضارة اسلامية لأنها استمدت أصولها وقواعدها ومنطلقاتها وبواعثها من الإسلام . وأن كانت عربية اللغة ، وأن كان العرب هم نواة الدولة ومؤسسوها ، فالدولة اسلامية والحضارة اسلامية ..

وإذا كانت الدعوة عالمية والرسول عالمى والدولة أيضاً عالمية ،

---

(١) الخربوطلى : الإسلام دين عالمى ص ٣٤ .

كذلك كانت الحضارة الإسلامية حضارة عالمية انتشرت حضارة المسلمين فى العالم أجمع طلعت على العالم نوراً أضاء . أشرقت عليه ضياء بدد ظلام العصور الوسطى . قدم المسلمون علومهم ومبتكراتهم وأبحاثهم للعالم فى سمو وتسامح تتلمذت الدنيا على علمائهم فى الأندلس . فجاءت الحضارة الإسلامية ركنا أساسيا عظيما فى الحضارة الانسانية . أو هى الصرح الشامخ الذى قامت عليه الحضارة الأوروبية بعد ذلك فهى بذلك حضارة عالمية . فالاسلام ليس دينا فحسب بل هو منهج متكامل . هو نظام حياة كاملة نظم حياة البشر على وجه الأرض . لم يترك الاسلام شيئا من أمور الحياة الا ووضح موقفه ورأيه فيه فلم يفرط الكتاب فى شىء .

الهجـرة وأهميتها

هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة « يثرب » فى الأثنين الثامن من ربيع الأول للسنة الأولى من الهجرة سنة ٦٢٢ م[١] دخل النبى ﷺ قباء . وأقام بها الثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجد قباء الذى نزل فيه

○ ـــــــــــــ ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [٢]

فكانت هجرته ايذانا بقيام الدولة العربية الإسلامية فقد كان الرسول فى مكة يعمل على نشر دينه الرشيد وكان يبنى الإنسان المسلم ، والعقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد . أما فى المدينة

(١) اللواء محمد مختار باشا : التوفيقات الالهامية فى التواريخ الهجرية جـ١ ص ٣٢ .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٨ .

فكان عليه أن يؤسس حكومة ودولة وينظمها سياسيا واداريا وعسكريا . والدولة هى شعب وأرض وحكومة . وفى مكة لم تكن لتتوفر للمسلمين تلك المقومات ، مقومات الدولة التى توفرت لهم بالهجرة إلى المدينة . ولم يكن للعرب قبل ظهور الإسلام حكومة ترعى هذه المصالح الداخلية والخارجية ، وإنما كانوا قبائل متفرقة فى نزاع وصراع دائمين وفى فوضى سياسية واجتماعية ودينية بعيدة المدى .

ثم ظهر الإسلام فوحد العرب وجعلهم أمة واحدة تخضع لحكومة واحدة تطبق عليهم شريعة واحدة فاستقرت أحوال العرب وعرفوا معنى النظام والأمن والاستقرار بعد تكوين الدولة العربية الإسلامية فى المدينة . كانت الهجرة تحولا كبيرا فى سياسة الرسول عليه الصلاة والسلام فقد أصبح رجل دولة ومنظم جماعة . عندئذ اتخذ الإسلام صورة الدولة بظهور بذور النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . . الخ .

بدأ الرسول الخطوة الأولى فى سبيل انشاء الدولة الإسلامية فى المدينة بأن وحد صفوف المهاجرين والأنصار حين آخى بين أصحابه منهم على الحق والمساواة حتى أنهم كانوا يتوارثون بهذا الاخاء ارثا مقدما على القرابة وصلة الدم . وبدأت تتضح نظم الدولة ومنها طبعا النظام العسكرى الذى يحفظ لهذه الدولة الناشئة أمنها وسلامتها ، وهذا أمر لابد منه وهو حق لكل الدول .

الفصل الثالث

قيام الدولة الإسلامية وتشريع القتال

(أ) قيام الدولة الإسلامية :

كانت هجرة الرسول والمسلمين إلى يثرب بعد ١٣ سنة من ظهور الإسلام فتحول أسمها إلى (المدينة المنورة) إذ استنارت بأنوار الإسلام والرسول . وبدأ الإسلام يدخل فى دور تاريخى جديد . ولم تكن الهجرة هربا أو فراراً ، بل هى انطلاق بالإسلام إلى آفاق أرحب وأوسع ، مما يحقق للاسلام الانتشار والنماء ، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد حقيقة النتائج المترتبة على الهجرة . فبعد ثمانية أعوام فحسب من الهجرة ، دخل الرسول عليه الصلاة والسلام مكة على رأس عشرة آلاف مؤمن . وفى السنة التاسعة بعد الهجرة استسلمت الطائف بدون قيد أو شرط ، واعتنقت ثقيف الإسلام ، وسقط بذلك آخر معاقل الوثنية فى الجزيرة العربية .

اعتاد المؤرخون أن يؤرخوا لقيام الدولة العربية الإسلامية بيوم الهجرة ، وهكذا شاء الله عز وجل أن تكون المدينة المنورة ، النواة الأولى لهذه الدولة الوليدة الناهضة لتقوم المدينة بدورها فى التاريخ العالمى . فتضبح عاصمة الدولة . ومدينة الرسول . ولتضم المسجد النبوى الشريف ، والجثمان الطاهر . ولتصبح ثانى المدن المقدسة عند المسلمين .

وتوالت الأحداث فى المدينة المنورة ، فكان التنظيم الجديد لمجتمعها بمحوريه ، أى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار[1] ، ثم

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٤٧ ، طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٣ ، المقريزى : امتاع الأسماع ص ٤٩ .

كانت الوثيقة التى تنظم العلاقات بين المسلمين ، مهاجرين وأنصار ، وبين يهود المدينة[1] وهذه الوثيقة كانت حدثاً جديداً فى بلاد الحجاز ، فقد قررت حرية الدين ، وحرية الرأى وحرمة الحياة ، وحرمة المال ، مما لا تعترف به لا قريش فى مكة ، ولا ثقيف فى الطائف .

وصف ابن هشام استقرار الأوضاع فى المدينة بعد وضع أسس الحياة العامة فيها ، فقال : « فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة ، واجتمع اليه اخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ، وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوأوا الدار والايمان . » .

ولقى الرسول عليه الصلاة والسلام كثيراً من المشاكل الداخلية ، وانتصر عليها ، وفى مقدمتها عداء المنافقين[2] واليهود[3] إلى جانب تهديد قريش للمدينة من الخارج ، والقيام بسلسلة متصلة من الغزوات . . فكانت أول حرب بين المسلمين ومشركى قريش ، هى

(١) أنظر نص هذه الوثيقة فى سيرة ابن هشام جـ٢ ص ١٤٧ - ١٥٠ .

(٢) المنافقون : هم أهل المدينة الذين تظاهروا بالإسلام نفاقا ليكيدوا له ، ومعظمهم من جماعة عبد الله بن أبى بن سلول زعيم الخزرج الذى كان يستعد لتوليه رئيسا للحكومة المشتركة ثم فوجىء بهجرة الرسول . فتظاهر باعتناق الإسلام . وأصبح هو وجماعته يمثلون حزب المعارضة الجوفاء .

(٣) كان اليهود يبشرون بقرب ظهور نبى ، وكانوا يتوعدون به الوثنيين ، ولكنهم كانوا يظنون أن النبى يظهر من إسرائيل ، وأعلن اليهود عداءهم للنبى لأنه عربى والنبوة فى رأيهم مقصورة عليهم كما أنه يبعث فى الحجاز بينما الشام فى رأيهم موطن الأنبياء . كما أدرك اليهود أن الإسلام دين توحيد جديد ينافس عقيدتهم اليومية ، وقد كانوا فى تنافس قديم مع المسيحية . ولذا تكرر نقض اليهود للوثنية وتكرر غدرهم .

حرب بدر ، « وكان النصر يوافى أبا سفيان فى عداوة النبى ﷺ لكونه كان ثقفيا » وأمر الرسول على بن أبى طالب بقتله[1] .

وتوالت الغزوات . فكانت أشهرها غزوتى أحد والخندق . حتى كان العام السادس بعد هجرته ، وفى شهر ذى القعدة منه . وهو من الأشهر الحرم التى يتوقف فيها القتال والخصام ، رأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يخرج على رأس جماعة من المسلمين إلى مكة . معتمرا ، لا غازيا ، فقد أعلن أنه « يريد زيارة البيت ، لا يريد قتال »[2] ، وأراد الرسول الكريم أن يعلن للعرب جميعا أن الاسلام يقدس الكعبة كما يقدسونها ، مما يؤدى إلى تقريب القلوب والمشاعر ، ويخفف من حدة الجفاء والخصام .

وعلم أهل مكة بخروج الرسول والمسلمين ، فدب فى قلوب قريش وأحزابها الخوف والذعر ، ورأوا جميعاً منع المسلمين من أداء العمرة ودخول مكة ، فان ذلك يؤدى إلى امتزاج المسلمين بأهالى مكة مما يؤدى إلى انتشار تعاليم الإسلام وأفكاره السامية بين أهالى مكة . ورأت قريش أن ترسل خالد بن الوليد ومعه مائتى فارس لصد المسلمين عن دخول مكة . وأبدى الرسول شجاعة فائقة واصرارا عظيما حيث قال :

« يا ويح قريش : لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ص ٢٠٨ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٢٢ .

وبهم قوة ، فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة »[1] .

واتخذ الرسول والمسلمون طريقا آخر إلى مكة ، غير الطريق المألوف ، رغم وعورته وامتداده بين الجبال ، حين بلغوا سهلا قريبا من مكة ، هو سهل (الحديبية) ، فأقاموا فيه خيامهم ، وقد ارتدوا ملابس الاحرام ، وصحبوا (الهدى)[2] .

لم يكن من اليسير على قريش أن تعلن الحرب على الرسول والمسلمين وفى شهر ذى القعدة ، الشهر الحرام ، ورأت قريش إيفاد بعض رسلها لأقناع الرسول بالعودة من حيث أتى . فأرسلت قريش بديلا بن ورقاء الخزاعى فى جماعة من بين خزاعة . وأعلن الرسول لهم أنه لم يأت يريد حربا ، وانما جاء زائرا للبيت ، ومعظما لحرمته ، وعادت هذه الجماعة الخزاعية إلى قريش لتقول لها : يا معشر قريش ، انكم تعجلون على محمد ، أن محمداً لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائرا هذا البيت .

ولم يعجب هذا القول قريشا ، وأصرت على منع الرسول من دخول مكة ، وقالت : وان كان جاء ولا يريد قتالا ، والله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ، ولا تحدث بذلك عنا العرب ![3] .

وإذ أخفقت سفارة بنى خزاعة ، رأت قريش أن تبعث بسفير

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٣ ص٣٢٣ السابقة صفحة العتق ، وهما سالفتان من وكنى بانفرادها عن الموت .

(٢) المقريزى جـ٢ ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٣) ابن هشام جـ٣ ص٣٣٧ ، الطبرى جـ٢ ص ٢٧٤ .

آخر ، هو الحليس بن علقمة ، وهو سيد احابيش مكة[1] وعاد الحليس يؤكد لقريش انه رأى هدى المسلمين مما يؤكد قدومهم للاعتمار ، ولكن قريشا ثارت عليه وألحقت به الاهانة ، مما أغضبه فقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا خالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ، والذى نفس الحليس بيده ، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ![2] .

وهنا يبرز دور زعيم من زعماء ثقيف ، هو عروة بن مسعود الثقفى ، وقد رأينا قدوم كل من بديل بن ورقاء الخزاعى ، والحليس ابن علقمة ، بتكليف من قريش ، أما عروة بن مسعود الثقفى ، فهو يتطوع ليقوم بالسفارة بين قريش والرسول عليه الصلاة والسلام .

ويبدو أن عروة قد شعر بالحرج ، ليكون سفيرا لقريش ، فليس من المنطقى ان يعبر ثقفى عن وجهات نظر قريش ، والقبيلتان كما نعلم فى عداء وتنافس ، ولذا رأى عروة أن يجتهد فى اقتناع قريش بايفاد الى الرسول لاقتناعه بالرحيل . أما سفير الأولان ، فقد كان من حقهما التفاوض باسم قريش . فبنوا خزاعة هم خلفاء قريش والاحابيش هم فى ولاء قريش ، ويمثلون قوتها العسكرية .

---

(١) كان الأحبيش جانبا من مجتمع مكة . ولفظ الأحابيش يدل على القوة العسكرية التى كانت قريش تستأجرها قبل الإسلام للدفاع عن مكة . وتألفت القوة من حلف من عرب كنانة وخزيمة . ومن خزاعة التى تناول ظاهر مكة . ويذكر المؤرخ (فلهوزن) أن الأحابيش أحلاف قريش السياسيين ويرى (الأمانس) الأحبيش كانوا زنوجا من الحبشة . ويؤكد المرحوم الأستاذ العبادى أنهم عرب ، وأن عبيد قريش المستخدمين فى الحروب ليسوا أحباشا (العبادى : صور من التاريخ الإسلامى ص ١٤) .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٢٦ .

ولذا وقف عروة بين القرشيين ليتساءل : أى قوم . ألستم بالوالد ؟ فيجيبه القرشيون : بلى . فيعاود السؤال : أو لست بالولد . فيجيبه القرشيون : بلى . فيعاود السؤال : أو لست بالولد . فيجيبوه ثانية : بلى . فيقول عروة : فهل تتهمونى ؟ فيقول القرشيون : لا .

ويحاول عروة اثبات جدارته وكفاءته . فيقول : ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى ؟ فقالوا : بلى . ثم طلب عروة من قريش أن تبعثه إلى الرسول ، فوافق القرشيون .

وحاول عروة اقناع الرسول بالعودة ، دون جدوى ، فلجأ إلى التهديد ، فقال : يا محمد : أجمعت أو شاب الناس . ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم . إنها قريش قد خرجت معها العود المطافيل قد لبسوا جلود النمور . يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا . وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا .

وغضب أبو بكر لهذا التهديد . وعير مسعودا بعبادته اللات ، ووصفها بأنها « طاغية ثقيف » . ثم قال أبو بكر : أنحن نفر وندعه ؟ وكان عروة اذا حادث الرسول « أخذ بلحيته » . وكان المغيرة بن شعبة . وهو ثقفى أيضا ، قائم على رأس النبى ومعه السيف ، فكان يضرب يد عروة كلما مدها نحو لحية الرسول ، ويقول له : أكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل اليك . وسأل عروة الرسول عمن يكون هذا الرجل ، أى المغيرة ، فأجاب الرسول : هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة ، وأقنع الرسول عروة بأنه « لم يأت يريد حربا » .

ويبدو أن لقاء عروة بالرسول والمسلمين كان طويلا ، كما يبدو أيضاً أن عروة كان ذكيا ، فقد أراد من خلال هذا اللقاء أن يستطلع أحوال الرسول بين أصحابه وعلاقته بهم . ورأى وضوءهم وصلاتهم ، وتقدير المسلمين للرسول عليه الصلاة والسلام . فقد رجع عروة إلى قريش ليقول لها : يا معشر قريش . أنى قد جئت كسرى فى ملكه . وقيصر فى ملكه . والنجاشى فى ملكه . وانى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه . ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا . فروا رأيكم[1] .

ولا شك أن عبارات عروة كانت مفاجأة قاسية لقريش . فهو الذى تطوع بالقيام بالسفارة وحاول جاهدا اقناعها بالموافقة . ووعد بأنه سينجح فى المهمة التى اخفق فيها زعيمان آخران . وقد كان عروة صادقا تماما فى عباراته الأخيرة التى نقلها إلى قريش . فقد أمعن الملاحظة والاختبار ، وأصبح صادقا ودقيقا فى الصورة التى نقلها إلى قريش . وهو زعيم له خبراته السياسية ، فقد تردد على بلاط أكبر ملوك عصره ، كسرى فارس ، وقيصر الروم ، ونجاشى الحبشة .

وانتهى الأمر بعقد صلح الحديبية بين الرسول وقريش ، وأهم نصوصه هى :

١ ـ يتوقف القتال بين الفريقين لمدة عشر سنوات .

٢ ـ يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلما بدون اذن وليه ، ولا تلتزم قريش برد من يأتى اليها من عند الرسول .

٣ ـ من أراد الدخول فى عهد قريش فله ذلك . ومن أراد الدخول فى عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٣٢٨ .

٤ ـ يعود الرسول فى ذلك العام (٦ هـ) دون أداء العمرة ، على أن يقدم والمسلمون فى العام التالى ، بعد رحيل قريش عن مكة ، وليس مع المسلمين الا سلاح المسافر ، أى السيف فى غمده[١] .

كسب الرسول عليه الصلاة والسلام بهذا الصلح كسبا عظيما ، إذ أنتزع قريشا من القبائل العربية التى كانت تقودها لقتاله ، وكانت تقف منها موقف الزعامة . كما أخذت قريش تغير نظرتها إلى الرسول . فأصبحت ترى أنه قرشى على الرغم من العداوة بينها وبينه . يجمعها وأياها نسب واحد . وصارت تعجب بعلو شأنه وخاصة السياسى[٢] .

ونحن نعتبر صلح الحديبية مقدمة لسقوط الطائف . واسلام ثقيف . وأول مسمار يدق فى نعش الوثنية والجاهلية فى الطائف . لقد كان هذا الصلح فتحا عظيما فى ميدان السياسة . ومن الفتح فى السياسة ما يكون أعظم أثراً من الفتح فى الحرب . وكان هذا الصلح هو اعتراف رسمى من قريش بما بلغه الرسول والمسلمون من قوة سياسية واجتماعية وعسكرية[٣] . ودخل الرسول والمسلمون مدينة مكة فى العام السابع بعد الهجرة ، وأصبحوا بذلك فى معقل الوثنية الأول مكة ، قريبين من المعقل الثانى من الطائف ، ولا شك أن ثقيفا قد اهتزت لهذا الانتصار السياسى العظيم ، كما أدى الصلح أيضا إلى بداية انتشار واسع للاسلام . فقد انتهز الرسول الكريم فرصة هذه الهدنة ـ لدعوة القبائل إلى الاسلام . وكان كثير منها قد غضب على

(١) انظر النص كاملا فى سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ ، تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٢٨١ .

(٢) جمال سرور : « قيام الدولة العربية ص ١٠٣ » .

(٣) الخربوطلى : الرسول فى المدينة ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

قريش لانفرادها بالصلح . كما خرج الرسول بالإسلام إلى خارج حدود الجزيرة العربية فكانت رسائله إلى ملوك وأمراء الدول ، تحقيقا لعالمية الدين الإسلامى كما أجلى اليهود عن المدينة ـ أما قريش ، وثقيف ، فقد ظلتا على عزلتهما وجمودهما . وأنصرفتا إلى ما كانتا عليه من نشاط اقتصادى . ومن حياة ترف ورفاهية ، دون الاستعداد لما يخبئه لهما مستقبل قريب .

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن الرسول عليه الصلاة والسلام . بعث فى العام السادس بعد الهجرة ، وبعد صلح الحديبية ، رسائله إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة ، ومنهم بعض أمراء الجزيرة العربية فقد كتب عليه الصلاة والسلام إلى أمير البحرين(١) .

وصاحب دمشق(٢) ، وأمراء اليمن(٣) ، وأميرى اليمامة(٤) ، فضلا عن رسائله إلى كسرى فارس وقيصر الروم ونجاشى الحبشة والمقوقس حاكم مصر ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام ، شاء بحكمته الكبيرة ألا يكتب إلى رؤساء ثقيف ، نتيجة تجاربه المريرة الماضية معهم . حين أصروا على ضلالهم . ورفضوا هجرته إلى الطائف .

---

(١) وهو المنذر بن سلوى ، وحمل الرسالة العلاء بن الحضرمى (النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ١١٩٩ ـ ١١٧٠) .

(٢) وهو الحارث بن أبى شمير الغسانى . وحمل الرسالة شجاع بن وهب (الطبرى جـ ٢ ص ٢٢٤) .

(٣) كتب الرسول إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ، وشريح بن عبد كلال ، ونعيم ابن كلال .

(٤) بعث الرسول سعيد بن عمر العامرى إلى هرذة بن على الحنفى ، وإلى ثمامة

ثم كان فتح مكة فى العام الثامن بعد الهجرة ، بعد أن تخلص من كيد يهود المدينة ، وأجلاهم عنها . ثم زحف نحو خيبر حيث تجمعوا ، فهزمهم ، فقبلوا دفع الجزية . وأصبحوا رعايا للدولة الإسلامية[١] .

نقضت قريش صلح الحديبية . إذ اعتدت على حلفاء للمسلمين[٢] وخرج الرسول عليه الصلاة والسلام ، يقود الجيش الإسلامى ، فى اليوم العاشر من رمضان سنة ٨ هـ . وضم الجيش عشرة آلاف مؤمن صادق ، وأنضم إلى الجيش كثير من القبائل وفتح المسلمون مكة بدون قتال . وأعلن الرسول سياسة العفو العام . وفى ذلك يقول المستشرق (واشنجتون ارفنج)[٣] : كانت تصرفات الرسول فى مكة تدل على أنه نبى مرسل لا على أنه قائد مظفر ، فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه رغم أنه أصبح فى مركز قوى ، ولكنه توج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو .

ولا شك أن ثقيفا قد دب الذعر فى قلوبها حين علمت بفتح مكة . وسقوط أكبر معاقل الوثنية والجاهلية . فقد حطم المسلمون الأصنام التى تزخر بها الكعبة[٤] ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) . كما أمر الرسول ﷺ خالد بن الوليد بتحطيم (العزى) فى وادى نخله وقام سعيد بن زيد الاشهلى بهدم (مناة)[٥] وإذا كانت اللات ،

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٤٣ وما بعدها .
(٢) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .
(٣) حياة محمد (ترجمة الدكتور الحربوطلى) ص ٢٢٩ .
(٤) كان حول الكعبة ٣٦٠ صنما ، سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٥٥ .
(٥) الكلبى كتاب الأصنام ص ٢٧ وما بعدها .

والعزى ، ومناة ، يكونون وحدة وثنية ثلاثية ، فقد زال وثنا العزى ومناة من الوجود ، وستأتى وشيكا ساعة اللات لتزول دولة الأصنام .

أصبحت مكة . أكبر مدن الحجاز ، فى أيدى الرسول والمسلمين ، واتسع بذلك نطاق الدولة العربية الإسلامية التى قامت فى المدينة بعد الهجرة ، ولكن طريق الكفاح والجهاد لا يزال طويلا ، فهناك بعض القبائل العربية التى لا تزال تعلن عداءها للإسلام كما لا تزال ثالثة مدن الحجاز الكبرى . أى الطائف . محتفظة بوثنيتها وجاهليتها .

قضى المسلمون فى مكة خمسة عشر يوما فى سرور وحبور ، فرحين بنصر الله عز وجل ، وبعودتهم إلى ديارهم سالمين منتصرين ولكن كان عليهم بعد انقضاء هذه الأيام ، مواصلة الجهاد ثانية ، فقد بدأت بعض القبائل العربية الوثنية ترفع رأسها وخشيت أن يكون مصيرها مثل مصير قريش . ورأت أن تحافظ على كيانها القبلى . وعقائد الوثنية . وأفكارها الجاهلية . وفى مقدمة هذه القبائل هوازن وثقيف . ولذا كان على الرسول والمسلمين أن يعاودوا الجهاد ثانية لتحقيق الانتصار الكامل على الوثنية والجاهلية الرجعية .

أدركت هوازن وثقيف خطورة الموقف ، فالمسلمون الآن فى مكة . على مقربة من الطائف حيث تسود ثقيف ديار هوازن فى جنوب شرقى مكة ، ولذا رأت القبيلتان أن تخوضا حربا مصيرية .

كانت كل من ثقيف وهوازن لا تستطيع مواجهة القوى الإسلامية وحدها ، ولذا رأت القبيلتان الكبيرتان توحيد جهودهما وضم حلفائهما اليهما ، وعقد مؤتمر عام لوضع خطط مواجهة الدولة الإسلامية الناهضة .

ورأس زعيم هوازن مالك بن عوف النضرى هذا المؤتمر ، الذى ضم قبائل ثقيف ، وجشم ، وسعد بن بكر ، وبعض بنى هلال . وتخلف عن الاجتماع من هوازن بنو كعب وبنو كلاب ومثل قبيلة جشم أحد شيوخها ، الطاعنين فى السن ، ذوى التجربة والخبرة فى السياسة والحرب والشعر وهو دريد بن الصمة ، ومثل ثقيفا زعيمان ، فكان قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب يمثل الاحلاف ، بينما مثل سبيع بن الحارث بن مالك بنى مالك[1] .

اجتمعت هذه الاحزاب فى سهل أوطاس ، وحشدت فيه رجالها ونساءها وأطفالها ودوابها وأموالها ، وهنا تبدو خبرة دريد بن الصمة العسكرية ، فلم تعجبه هذه الصورة الغريبة وتوجه باللوم لرئيس هؤلاء الحلفاء ، فقال له : يا مالكِ ، انك قد أصبحت رئيس قومك . وأن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام[2] . مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، وثغاء الشاة ، ودافع مالك عن سياسته فقال أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله . ليقاتل عنهم وتهكم دريد على مالك فقال له : راعى ضأن والله . وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه . وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك[3] وانتقد دريد أيضاً تخلف بنى كعب وبنى كلاب عن الانضمام إلى الجيش .

وازدادت حدة الخلاف بين الرجلين . واتهم دريدا بكبر السن وضعف العقل وشعر بالغيرة من دريد ، وأراد الخلاص منه . وخير هوازن بين طاعته أو طاعة دريد ، فآثروه على دريد ، فقد كان مالك

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .
(٢) هذه العبارة تؤكد ما ذكرناه من أن الحرب تكون مصيرية .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٦٦ .

فى الثلاثين من عمره ، يمتلىء حماسة وفتوة ، بينما كان دريد طاعنا فى السن وأضعفته السنون[1] .

واحتشد الحلفاء فى مضيق وادى حنين . مستفيدين من مناعته الطبيعية ، وبعث مالك بن عوف عيونا من رجاله ، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم[2] ، فغضب مالك وصاح فيهم : ويلكم ، ما شأنكم ؟ فأجابوا : رأينا رجالا بيضا على خيل بلق ، فوالله ما تمسكنا أن أصابنا ما ترى . وفى نفس الوقت بعث الرسول عليه الصلاة والسلام عبد الله بن أبى حدرد الاسلمى ، ليستطلع أحوال هؤلاء الحلفاء ، « فانطلق ابن أبى حدرد فدخل فيهم . فأقام معهم ، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ ، وسمع من مالك وهوازن ما هم عليه »[3] .

وأدرك الرسول عليه الصلاة والسلام أن الحرب مصيرية ، ولذا رأى أن يأخذ للأمر عدته ، فطلب من صفوان بن أمية ، وكان مشركا ، أن يعير المسلمين « أدراعا له وسلاحا » ، ثم يعيدها المسلمون اليه بعد المعركة ، فقدم صفوان مائة درع بما يكفيها من السلاح[4] .

وخرج الرسول ومعه أثنى عشر ألف مسلم ، منهم عشرة آلاف كانوا قد خرجوا معه من المدينة فى فتح مكة . وألفين من أهالى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨١ ـ ٨٢ ، تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٤٦ ، المقريزى : متاع الأسماع جـ ١ ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨٢ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الطبرى جـ ٣ ص ٣٤٦ .

مكة . وولى الرسول أميرا على مكة عتاب بن سيد بن أبى العيص بن أمية ابن عبد شمس[1] فكان هذا فى الحقيقة مظهرا من التسامح . فقد أبدى الأمويون قبل فتح مكة عداء شديداً للاسلام وللرسول[2] .

وتقدم جيش الايمان للقاء الحلفاء الوثنيين فى معركة حاسمة مصيرية . . وصور الشاعر عباس بن مرداس السلمى فى أبيات من الشعر وتوجه فيها برسالة نصح إلى قبيلة هوازن . فأنشد :

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها
منى رسالة نصح فيه تبيان
أنى أظن رسول الله صابحكم
جيشا له فى فضاء الله أركان
فيهم سليم أخوكم غير تارككم
والمسلمون عباد الله غسان
وفى عضادته اليمنى بنو أسد
والاجربان بنو عبس وذبيان
تكاد ترجف منه الأرض رهبته
وفى مقدميه أوس وعثمان[3]

وحينما اقترب الجيش الإسلامى من وادى حنين ، انحدر إلى واد من أودية تهامة ، يتصف بالاتساع والانحدار ، وكان الوقت مساء ،

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٧٠ .
(٢) الخربوطلى ، الرسول فى المدينة ص ١٦٢ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٤ .

فآثر المسلمون الانتظار للصباح لخوض المعركة ، وقبيل الفجر ، فأجأ الحلفاء المشركون معسكر المسلمين بهجوم عنيف فقد كان المشركون يترصدون حركات الجيش الإسلامى ، فكمنوا للمسلمين فى شعب الوادى ، ومضايقه . ثم هاجموهم فى الظلام ، مما كان مفاجأة لهم ، ووقع الاضطراب فى معسكر المسلمين ولاذ بعضهم بالفرار . وثبت الرسول مع قوم من المهاجرين والانصار وأهل بيته .

وكان ما حدث فعلا هو اضطراب وقلق فى معسكر المسلمين ، نتيجة عنصر المفاجأة التى لجأت اليها هوازن وثقيف وحلفاؤ ها ، كما أن الهجوم كان فى الظلام ، ولكن هذا الاضطراب أطلق ألسنة الشامتين وضعفاء الايمان[١] وفى مقدمتهم أبو سفيان بن حرب الذى لا يزال قلبه يمتلىء بالحقد والحسد ، فقد قال : « لا تنتهى هزيمتهم دون البحر » ومنهم أيضا شيبه بن عثمان بن أبى طلحة الذى قال : اليوم أدرك ثأرى من محمد . اليوم أقتل محمداً ، وكان أبوه قد لقى حتفه فى موقعة أحد ، وروى ابن هشام[٣] أن شيبه قال بعد فشله فى اغتيال الرسول : « فأدرت برسول الله لاقتله ، فأقبل شىء حتى تغشى فؤادى . فلم أطق ذلك ، وعلمت أنه ممنوع منى » .

وصاح العباس بن عبد المطلب ، بأمر من الرسول ، يأمر المسلمين بالصمود والاتحاد . ولم الشعث ، وأجابه المسلمون « لبيك . . لبيك » وترددت أصواتهم فى جوانب الوادى . حتى إذا عادت للقوات الإسلامية وحدتها ونظامها ، قال عليه الصلاة

---

(١) الخربوطلى : الرسول فى المدينة ص ١٦٣ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨٧ .

والسلام : « الآن حمى الوطيس »[1] .

وبزغت الشمس ، وأرسلت أشعتها . تبدد كل مخاوف ثارت منذ ساعات فى نفوس المسلمين ، وتحولت الهزيمة المؤقته ، فى فترة قصيرة ، إلى نصر مؤزر . وظنت هوازن وثقيف أن النصر قد بات قريبا منهم ، ولكنهم سرعان ما شعروا باليأس والقنوط ، فقدنجح المسلمون فى جمع شملهم ، واندفعوا كالسيل الجارف يطيحون بصفوف المشركين . ولم يجد الحلفاء مفرا من الانسحاب السريع ، والفرار من المعركة ، تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم ومتاعهم وحيواناتهم ، لتصبح غنيمة للجيش الإسلامى ، ووقع ستة آلاف من المشركين أسرى فى أيدى المسلمين[2] .

وروى ابن هشام[3] والطبرى[4] روايات تصور بطولة المسلمين فى هذه المعركة التاريخية ، بل أبدت المرأة المسلمة استبسالا يضرب به المثل . فقد تحدث ابن هشام عن أم سليم ابنة مقحان ، التى كانت تقاتل مع زوجها أبى طلحة ، وكانت حاملا بأبنها عبد الله بن أبى طلحة . وقد وجد زوجها معها خنجرا فسألها عنه ، فأجابت : خنجر أخذته ، ان دنا منى أحد من المشركين بعجته[5] وروى ابن هشام[6] أنه بعد هزيمة المشركين ، انشدت امرأة من المسلمين :

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٤٨ .
(٢) الخربوطلى : الرسول فى المدينة ص ١٦٣ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨٨ وما بعدها .
(٤) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٤٨ وما بعدها .
(٥) يقال بعج بطنه أى شقه .
(٦) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٩٣ .

قد غلبت خيل الله خيل اللات
والله أحق بالثبات

لحقت بثقيف هزيمة كبرى . فقد قتل من بنى مالك ومن ثقيف سبعون رجلا تحت رايتهم ، وكان يحملها عثمان بن عبد الله بن ربيعه بن الحارث بن حبيب فلقى حتفه . فقال الرسول : أبعده الله ، فانه كان يبغض قريشا[1] . وهذا الحديث الشريف يصور . كيف كانت ثقيف تقاتل . بغضا لقريش عامة ، وللمسلمين خاصة وهرب الاحلاف من ثقيف من المعركة . ولذا لم يقتل منهم غير رجلين . وكان من الهاربين صاحب الراية قارب بن الأسود . وأنشد فى ذلك عباس بن مرداس السلمى أبياتا كثيرة نقتبس منها هذه الأبيات :

وبئس الأمر أمر بنى قسى[2]
بوج[3] إذ تقسمت الأمور
أضاعوا أمرهم ولكل قوم
أمير والدوائر قد تدور
فجئنا أسد غابات اليهم
جنود الله ضاحية[4] تسير
نؤم[5] الجمع جمع بنى قسى
على حنق نكاد له نطير[6]

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨١ .
(٢) قسى : وهو الاسم الأصلى لثقيف .
(٣) بوج الاسم القديم لمدينة الطائف .
(٤) ضاحية : بارزة لا يخفى مكانها .
(٥) نؤم : نقصد .
(٦) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٩٣ .

صور الطبرى[1] تفرق المشركين بعد هزيمتهم ، فقال : ولما أنهزم المشركون : أتوا الطائف ، ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن توجه إلى نخله الا بنو غيرة من ثقيف ، فتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك فى نخلة من الناس . ولم تتبع من سلك الثنايا « ولقى دريد بن الصمة حتفه ، وهزم أصحابه[2] .

وجمع مالك بن عوف فلول جنده ، ونظم انسحابه إلى مدينة الطائف ، ونهى الرسول عن قتل الضعفاء ، وجمع المسلمون كثيرا من الغنائم والسبايا[3] ، فجعلها الرسول فى مكان يسمى (الجعرانة)[4] باشراف مسعود بن عمرو الغفارى .

ونزلت آيات قرآنية فى يوم حنين منها :

○ ———————— ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٥٠ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٩٦ ، الطبرى جـ ٢ ص ٣٥١ .

(٣) روى ابن هشام جـ ٤ ص ١٠٠ أنه كان من بين الأسرى الشيماء بنت الحارث ابن عبد العزى . وهى أخت الرسول من الرضاعة . فبسط الرسول الكريم لها رداءه . وأجلسها عليه وخيرها بين البقاء معه أو العودة إلى قومها . فاختارت أن يردها الرسول إلى قومها .

(٤) الجعرانة : تقع بين الطائف ومكة وهى إلى مكة أقرب (معجم البلدان جـ ٣ ص ١٠٩) .

مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ
وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1]

قدمت فلول ثقيف إلى الطائف ، هاربة من مصيرها ، لتعتصم فى مدينتها الحصينة ، وتغلق عليها أبواب سورها المنيع . وبدأت تستعد بتوفير الأسلحة ، ووسائل مقاومة المحاصرين المسلمين . وكانت ثقيف قد أرسلت ابنين من أبنائها ، فى بعثة تعليمية ، إلى جرش فى اليمن ، لتعلم صناعة الدبابات[2] والمجانيق[3] والضبور[4] . ولذا لم يشهداً موقعة حنين[5] .

واتجه الرسول والجيش الإسلامى إلى الطائف ، فاجتازوا وادى نخلة ، ثم قرن ، ثم المبح ، حتى وصلوا إلى وادى ليه قرب الطائف ، فابتنى الرسول بها مسجدا وصلى فيه ثم عسكر المسلمون قرب الطائف ، وأخفق المسلمون فى اختراق سور الطائف ، وأنهالت عليهم سهام ثقيف ، فأصابت من بعضهم مقتلا[6] .

---

(١) سورة التوبة آية ٢٥ ـ ٢٦ .
(٢) الدبابة : يدخل المحاربون فى جوفها ويزحفون إلى جدار الحصن فيثقبونه .
(٣) المنجنيق : أداة ترمى بها الحجارة على الأعداء .
(٤) الصنبور : مثل رؤوس الأسناط وتصنع من الخشب والجلود .
(٥) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٢٩ .
(٦) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٢ ، الأنوار المحمدية ص ١٢١ .

حاصر الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمون فى مدينة الطائف وهى مدينة منيعة وذات موارد اقتصادية وفيرة ، تتحمل الحصار الطويل ، كما كانت ثقيف على دراية بمواجهة أى حصار ، ولم تغير سهام ثقيف عزم الرسول على استمرار حصار الطائف ، آخر معاقل الوثنية فى الجزيرة العربية[1] .

ورأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يواجه أسوار الطائف الحصينة بآلات الحصار ولما كان المسلمون لا يملكون حينئذ مثل هذه الآلات . فقد رأى الرسول أن يستعين بقبيلة بنى دوس . التى تقيم قرب مكة . وكانت على دراية بأساليب الحصار واختراق الأسوار . وكان فى الجيش الإسلامى أحد أبناء هذه القبيلة . وهو الطفيل ، فبعثه إلى قومه ، فقدمت جماعة منهم ومعهم أدوات الحصار . وبدأ المسلمون يقذفون الأسوار بالمنجنيق ، وروى ابن هشام[2] أن رسول الله أول من رمى فى الإسلام بالمنجنيق رمى أهل الطائف . » .

وبدأ المسلمون يحاولون أحداث ثغرة فى سور الطائف ، فدخل بعض المسلمين تحت دبابة مصنوعة من الجلد وزحفوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه . فألقت ثقيف عليها قطعا من الحديد المحماة فأحرقت ليخرقوه ، فأصيب من تحتها من المسلمين[3] .

وبعث الرسول عليه الصلاة والسلام بمناد ينادى بأن من يقدم اليه من عبيد الطائف يصبح حرا ، فقدم عليه ثلاثة وعشرون رجلا ،

---

(١) الخربوطلى ، الرسول فى المدينة ص ١٦٥ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٢٨ .
(٣) فتوح البلدان ص ٦٨ .

فأعتقهم ووكل أمر النفقة عليهم إلى بعض المسلمين ، كما أمر بتعليمهم القرآن الكريم والهدى النبوى الشريف ، وغضب أهل الطائف لتحرير عبيدهم[٤] ، ويذكر البلاذرى من هؤلاء الرقيق أبا بكر بن مروح مولى الرسول عليه الصلاة والسلام ، والأزرق الذى نسبت الخوارج الازارقة اليه ، وكان عبدا روميا حداداً ، وهو أبو نافع بن ازرق الخارجى .

نفس الوسيلة التى اتبعها المسلمون مع يهود بنى النضير لارغامهم على الجلاء عن المدينة وكانت كروم الطائف لها شهرتها فى الجزيرة العربية ، وهى عزيزة على أهلها[٢] .

وتألمت ثقيف وهى ترى كرومها تأكلها النيران وتقطعها الايدى ، فطلبت ثقيف من الرسول أن يأخذ الكروم لنفسه . أو ليدعها لله والرحم . إذ بينه وبينهم قرابة وتجلت رحمة الرسول لطلب ثقيف فأمر المسلمين بالتوقف عن تقطيع الكروم[٣] .

واستمر حصار المسلمين للطائف نحو خمسة عشر يوما ، حتى حل شهر ذى القعدة ، من العام الثامن بعد الهجرة ، وهو من الأشهر الحرم ، فرأى الرسول أنهاء الحصار على أن يعاوده بعد نهاية الشهور الحرم . وبدأت عودة الجيش الإسلامى إلى مكة ، وأحصى ابن هشام[٤] عدد من استشهد من أصحاب الرسول فقال أنهم أثنا عشر

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٠ ، طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٢١١ .
(٢) الخربوطلى : الرسول فى المدينة ص ١٦٥ .
(٣) سيرة بن هشام جـ ٤ ص ١٢٦ .
(٤) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٢٩ .

رجلا ، سبعة من قريش ، وأربعة من الأنصار ، ورجل من بنى ليث .

وتوقف الرسول عليه الصلاة والسلام بوادى جعرانة ، حيث كان الرسول قد ترك الغنائم التى حازها المسلمون بعد انتصارهم على هوازن فى حنين .

وقدم رجل على الرسول عليه الصلاة والسلام ، من أصحابه ، فطلب من الرسول أن يدعو الله على ثقيف ، ولكن الرسول الكريم الرحيم توجه إلى الله تعالى بالدعاء فقال : « اللهم أهد ثقيفا وأت بهم »(1) .

وفى الجعرانة ، كانت هناك الغنائم الكثيرة التى حازها المسلمون ، فهناك آلاف ، النساء والذرارى ، وستة آلاف بعير « ومن الشاة ما لا يحصى »(2) .

ورأت قبيلة هوزان أن تتخلى نهائيا عن حليفتها القديمة ثقيف ، فلا تربط مصيرها بها . فبعثت هوازن وفدا يعلن اسلام هذه القبيلة ، وعبر هذا الوفد عما عانته هوازن فى مناصرتها لثقيف ، فقالوا : يا رسول الله ، انا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامتن علينا ، من الله عليك(3) .

والتمس وفد هوازن من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يرد عليهم ذراريهم وأموالهم . وحدثوا الرسول عن الصلات التى تربطه

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٣١ .
(2) الطبرى جـ ٢ ص ٣٥٦ .
(3) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٣١ .

بهوازن ، فقد قضى أيام طفولته بين بنى سعد من هوازن . حيث أرضعته حليمة السعدية ، فقالوا : يا رسول الله انما فى الحظائر عماتك وخالاتك ، وحواضنك اللاتى كن يكفينك . . وأنت خير المكفولين[1] . ثم أنشد :

امنن علينا رسول الله فى كرم
فانك المرء نرجوه وندخر
أمنن على بيضة قد عاقها قدر
ممزق شملها فى دهرها غبر[2]

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : أبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم/ فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا ، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا ، فهم أحب الينا . وتنازل الرسول الكريم عن حقه وحق بنى عبد المطلب فى الغنائم ، واقتدى به المهاجرون والأنصار ورفض بعض القبائل البدوية ، مثل بنو تميم ، وبنو فزارة فقال الرسول : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى . فله لكل انسان ست فرائض ، من أول سبى أصيبه ، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم[3] .

وسأل الرسول عليه الصلاة والسلام وفد هوازن عن مالك ابن عوف ، فقالوا إنه بالطائف مع ثقيف فقال الرسول الكريم : أخبروا مالكا أنه إن أتانى مسلما رددت عليه أهله وماله ، وأعطيت مائة من الإبل ، وتحايل مالك على الخروج ليلا من الطائف وتكتم

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٣١ .
(٢) الطبرى جـ ٣ ص ٨٦ - ٨٧ .
(٣) ابن هشام جـ ٤ ص ١٣٢ ، الطبرى جـ ٦ ، ص ٣٥٦ .

النبأ حتى لا تعلم به ثقيف ، والتقى بالرسول ، وأسلم ، ووفى الرسول له بوعده ، فأنشد مالك :

ما أن رأيت ولا سمعت بمثله
في الناس كلهم بمثل محمد

واستعمله الرسول عليه الصلاة والسلام على من أسلم من قومه ، وعلى قبائل ثمالة وسلمة وفهم « فكان يقاتل بهم ثقيفا ، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه ، حتي ضيق عليهم »(١) وأنشد أبو محجن ابن خيب بن عمر بن عمير الثقفى :

هابت الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سلمة
وأتانا مالك بهم ناقضا للعهد والحرمة
وأتونا فى منازلنا ولقد كنا أولى نقمة

أما الأموال التى غنمها المسلمون من هوازن ، فقد قسمها الرسول على المؤلفة قلوبهم من كبار القرشيين وغيرهم من العرب الذين أسلموا حديثا ، ولم يعط الأنصار شيئا منها ، مما أغضبهم ، فقال بعضهم لبعض : « لقى والله رسول الله قومه » . وعلم الرسول بمقالتهم ، وأراد تبديد غضبهم ، فقال لهم : « وجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى شىء من الدنيا تألفت به قوما أسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ، والذى نفسى بيده ، لولا الهجرة لكنت أمرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار » وكانت كلمات

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٣٨

الرسول الكريم بردا وسلاما على نفوس الأنصار ، فقالوا : « رضينا برسول الله قسما وحظا »(١) وغادر الرسول الكريم وأدى جعرانة ، قاصدا مكة للاعتمار ، ثم استعد للرحيل إلى المدينة ، وولى عتاب ابن أسيد على مكة ، وعهد إلى معاذ بن جبل بتفقيه الناس فى الدين وتعليمهم القرآن الكريم ، وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم فى طائفهم ، ما بين ذى القعدة إذ انصرف رسول الله ﷺ إلى شهر رمضان من سنة تسع »(٢) .

إسلام ثقيف والطائف

ظنت ثقيف وقد رأت جيش المسلمين يفك الحصار ، أنها قد امتنعت بحصونها على الرسول وأصحابه ، وانتصرت عليهم ، فى وقت دانت مكة فيه بالطاعة للرسول فاغترت ثقيف بهذا النصر ، ولم تدر ثقيف أن الرسول إنما عدل عن حصارها وتركها لحصار أطول وأشد ، فقد صارت بوثنيتها فى الطائف فى عزلة عن سائر العرب حولها الذين أسلموا وأصبحوا يناصبونها العداء . ويعتبرون أنفسهم فى حالة حرب معها لمناوأتها الإسلام وتعذيب من أسلم من أهلها(٣) .

وإن كان حصار المسلمين للطائف لم يؤد إلى دخول هذه المدينة الحصينة ، إلا أنه حقق كثيرا من النتائج الهامة ، فقد تخلت عن ثقيف حليفاتها من القبائل ، وأعلنت إسلامها ودخلت فى ولاء الرسول عليه الصلاة والسلام . كما أصبحت مكة جزءا من الدولة

---

(١) المقريزى : أمتاع الأسماع جـ ١ ص ٤٣١ - ٤٣٢ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٤٤ .
(٣) تاريخ الإسلام جـ ١ ص ١٤٥ .

الاسلامية ، وقد شهدنا فى الفصول السابقة دور مكة الرئيسى فى اقتصاديات الطائف كما كانت تلك العزلة التى أثرتها ثقيف تؤثر فى حياتها الاقتصادية ومواردها المادية ، وبات أهالى الطائف فى حالة قلق نفسى مستمر ، يترقبون عودة المسلمين مرة أخرى لحصار مدينتهم واختارت ثقيف أن تعيش فى سجن كبير ، تحيط به أسوار عالية ويحيط بها الأعداء من كل جانب ، كما كانت دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى تحرير الرقيق فى الطائف ترهب ثقيفا[1] . إذ أنها تخل بموازين الحياة الاجتماعية التقليدية . فيرى ابن هشام :

« لما أسلم أهل الطائف ، تكلم نفر منهم فى أولئك العبيد ، فقال رسول الله ﷺ : لا ، أولئك عتقاء الله »[2] .

وأدرك عروة بن مسعود ، أحد زعماء ثقيف ، هذه الأحوال السيئة التى باتت الطائف تعيش فيها ، وتعانى منها ، ولذا خرج من الطائف مسرعا ليلحق بالرسول عليه الصلاة والسلام قبل أن يصل إلى المدينة ، فأعلن إسلامه ، وعرض على الرسول أن يعود إلى الطائف ليحثهم على الإسلام ، فقال الرسول له : إنهم قاتلوك ، وبرر ابن هشام[3] هذا القول عن ثقيف ، فقال : « وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم ـ أى ثقيف ـ نخوة الامتناع الذى كان منهم » فقال عروة : أنا أحب إليهم من أبصارهم .

وكان عروة بن مسعود حسن الظن بقومه من ثقيف ، فظن أنهم

(١) فتوح البلدان ص ٦٧ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٢٨ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٠ .

يستجيبون لدعوته لهم إلى الإسلام «لمنزلته فيهم» حتى إذا بلغ الطائف، ودعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه، رموه بسهام كثيرة أصابت منه مقتلا، وقبل أن يلفظ عروة أنفاسه الأخيرة، سأله أحدهم: ما ترى فى دمك؟ فأجاب عروة: كرامة أكرمنى الله بها، وشهادة ساقها الله إلى، فليس فى إلا ما فى الشهداء قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنونى فدفنوه معهم، وعلم الرسول عليه الصلاة والسلام بأمر عروة، فقال: إن مثله فى قومه كمثل صاحب ياسين فى قومه(١).

وتلاحقت الأحداث فى المدينة المنورة، عاصمة الدولة الإسلامية، فكانت غزوة تبوك وانشغال الرسول بإعداد الجيش الإسلامى الذى يقاتل دولة الروم، ثم واجه الرسول محاولات المنافقين التخاذلية. ومرت شهور بين حصار الطائف فى ذى القعدة سنة ٨ هـ. حتى حل رمضان سنة ٩ هـ. وأدركت ثقيف الموقف الحرج الذى تقفه فى الجزيرة العربية، وعلمت أنها لم تستفد شيئا من صمودها لحصار المسلمين وفطنت إلى أن عروة بن مسعود كان على حق، وفى ذلك يقول ابن هشام: «ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرا، ثم أنهم ائتمروا بينهم، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوه وأسلموا».

وأدرك زعماء ثقيف أن الطائف قد أصبحت جيبا وثنيا صغيرا، وسط جزيرة عربية شاسعة تعتنق الإسلام. وخرج أحد زعماء ثقيف، وهو عمرو بن أمية، وهو من أدهى العرب، ليلتقى بزعيم

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٣، طبقات ابن سعد جـ ٢، ص ٧٦، الطبرى جـ ٢، ص ٣٦٢.

آخر هو عبد ياليل بن عمرو ، رغم ما كان بينهما من نفور وتباعد ، وشرح عمرو له حقيقة أوضاع ثقيف والطائف ، فقال : أنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، أنه كان من أمر هذا الرجل (يقصد الرسول) ما قد رأيت وقد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا فى أمركم !!

وعقد زعماء ثقيف مؤتمرا عاما ، فقال بعضهم لبعض : أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب[١] ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع . وقرر هذا المؤتمر الثقفى إيفاد أحد زعمائها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ووقع الاختيار على عبد ياليل ، ولكنه رفض هذا التكليف ، حتى لا يكون مصيره كمصير سلفه عروة ابن مسعود ، وكانا من عمر واحد . حتى إذا ألحوا عليه ، اشترط عليهم شروطا ، فقال : لست فاعلا حتى ترسلوا معى رجالا وتم تأليف الوفد الراحل إلى المدينة ، برئاسة عبد ياليل وعضوية رجلين من الأحلاف . وثلاثة أعضاء من بنى مالك ، وهما بطنى ثقيف الكبيرين ، وبذلك يصبح هذا الوفد السداسى ممثلا لأهالى الطائف[٢] . وفسر الطبرى[٣] اشتراط ضم هؤلاء الأعضاء الخمسة إليه ، فقال : « ولم يخرج منهم إلا خشية من مثل ما صنع بعروة ابن مسعود ، ليشغل كل رجل منهم[٤] إذا رجعوا إلى الطائف رهطة » .

---

(١) سرب : نفر . .

(٢) ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٣

(٣) تاريخ الطبرى جـ٣ ص ٣٦٤ .

(٤) كان الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب يمثلان الأحلاف ، وكان عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد دهمان وأوس بن عوف ، ونثير ابن خرشة بن ربيعة يمثون بنى مالك (سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٣) .

واقترب الثقفيون الستة من المدينة ، وعند قناة خارجها ، التقوا بالمغيرة بن شعبة ، وهو ثقفى أيضا ، وكان يرعى ركاب أصحاب الرسول ، وكان الصحابة يتناوبون هذا الرعى ، حتى إذا علم المغيرة سبب قدوم الثقفيين ، ترك الركاب فى عهدة الثقفيين ، وهرع إلى الرسول ليبشره بقدوم وفد ثقيف . وفى طريقه ، التقى بأبى بكر الصديق « فأخبره ـ أى المغيرة ـ عن ركب ثقيف أن قد قدموا يريدون البيعة والإسلام ، بأن يشرط لهم رسول الله ﷺ شروطا ، ويكتتبوا من رسول الله ﷺ كتابا فى قومهم وبلادهم وأموالهم » وطلب أبو بكر من المغيرة أن يترك له فرصة تبشير الرسول الكريم بقدوم الثقفيين ، فاستجاب المغيرة لرجائه[1] .

وعاد المغيرة إلى وفدالطائف ، وصحبهم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلمهم كيف يحيون الرسول بتحية الاسلام ، وضرب الرسول لهم قبة فى ناحية مسجده ، وحضر خالد بن سعيد ابن العاص اجتماع الرسول بوفد ثقيف ، وتولى كتابه الكتاب الذى التمسه الوفد من الرسول ﷺ .

أعلن الثقفيون اعتناقهم ، هم وقومهم ، الإسلام ، بشروط ، هى إعفاؤهم من الصلاة ، وترك طاغيتهم « اللات » لا يهدمها ثلاث سنوات ، وأصر الرسول على أن تعتنق ثقيف الإسلام بدون قيد أو شرط . فسألوه أن يترك اللات سنتين ، ثم سنة ، ثم شهرا ، فرفض الرسول ذلك كله ، ويعلل ابن هشام[2] والطبرى[3] هذا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٤ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٥ .
(٣) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٢٦٥ .

الطلب ، بقولها : « وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام » .

وأراد الرسول الكريم . تكريم ثقيف ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أما كسر أوثانهم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه » ولكن الثقفيين لم يقدروا هذا التكريم التقدير الحقيقى ، فقالوا : « يا محمد ، فسنؤتيكها ، وإن كانت دناءة !! »(1) .

كتب الرسول عليه الصلاة والسلام لوفد ثقيف كتابا وولى عليهم عثمان بن أبى العاص ، وكان من أحدثهم سنا » وذلك أنه كان أحرصهم على التفقة فى الإسلام ، وتعلم القرآن »(2) .

كان قدوم وفد الطائف إلى المدينة ـ كما ذكرنا ـ فى شهر رمضان ، فلما اعتنقوا الإسلام على يدى الرسول ﷺ بدأوا يؤدون فرائض الإسلام ، فأدوا الصلاة وصاموا رمضان مع المسلمين فى المدينة ، وكان الرسول يبعث إليهم بفطورهم وسحورهم مع بلال ، وضرب وفد الطائف مثلا رائعا للتمسك بأركان الإسلام(3) .

فقد كان بلال إذا قدم إليهم بطعام السحور امتنعوا عن الأكل وقالوا : إنا لنرى الفجر قد طلع . وقد كان الرسول يؤخر السحور . وإذا قدم بلال بطعام الافطار امتنعوا عن الأكل أيضا وقالوا : ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد . فيطمئنهم بلال ويقول :

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٩٧ .

(2) المصدر السابق .

(3) الخربوطلى : الرسول فى رمضان ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

ما جئتكم حتى أكل رسول الله ﷺ ثم يضع بلال يده فى الجفنة فيلتقم منها ليحذوا حذوه[1] .

حتى إذا بدأ الثقفيون رحلتهم راجعين إلى الطائف ، توجه الرسول عليه الصلاة والسلام بالنصيحة لأمير الطائف الجديد عثمان ابن أبى العاص .

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٩٧ .

ب) تشريع القتال :

من المؤكد أن القتال كان محظورا على المسلمين قبل الهجرة وفى أول مقدم[1] الرسول ﷺ إلى المدينة كان تشريع القتال ، ونزلت بالمدينة أول سورة تبيح للمسلمين وتأذن لهم بالقتال دفاعا عن النفس والعقيدة لكنها لم تأمر بالقتال ، أى أنه أذن لهم بالقتال ولم يفرضه عليهم[2] .

كان أول ما أنزل من القرآن فى أمر القتال[3] قوله تعالى فى سورة الحج .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[4]

(١) الشافعى : الأم جـ ٤ ص ٨٤ . الخضرى : تاريخ التشريع الإسلامى . ص ٦٠ .
(٢) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد جـ ١ ص ٣١٤ .
(٣) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٤٤ .
(٤) سورة الحج آيات (٣٩ ـ ٤٠) ابن كثير : تفسير القرآن جـ ٢ ص ٢٢٥ .

قال الواحدى فى أسباب النزول . « كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ ، فلا يزالون يجيئون من بين مضروب ومشجوج ، نشكوهم إلى رسول الله ﷺ ، فقال لهم : اصبروا فإنى لم أومر بالقتال ، حتى هاجر ﷺ إلى المدينة فأنزل الله تعالى هذه الآية (١)

وقد روى عن ابن عباس أن النبى ﷺ لما خرج من مكة قال أبو بكر « اخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه لنهلكن . فأنزل الله :

○ ———— ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ (٢)

قال أبو بكر فعرفت أنه سيكون قتال (٣) .

وهكذا لما عتت قريش على الله ، وردوا أمره ، وكذبوا رسوله وعذبوا من آمن به وتبعه وعبد الله وحده ، وأصبح المسلمون بين مهاجر أو مفتون ، أذن الله لرسوله بالقتال فكانت أول آية تأذن للمسلمين بالقتال .

أى أن الله تعالى أحل القتال هنا لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم دنب فيما بينهم وبين الناس إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه ، ومن الجدير بالذكر أن الإسلام دين السلام ، قال تعالى :

○ ———— ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ (٤)

فالمسلم يعيش فى عالم كله سلم وكله سلام ، عالم كله ثقة واطمئنان عالم كله رضا واستقرار ، لا حيرة ولا قلق ، سلام مع

---

(١) الواحدى : أسباب النزول ص ١٧٧ .

(٢) سورة الحج آية ٣٩ .

(٣) ابن العربى : أحكام القرآن مجلد ٣ ص ١٢٩٦ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٠٨ .

النفس والضمير سلام مع الناس والأحياء ، سلام مع الوجود كله ، سلام يظلل الحياة والمجتمع ، سلام فى الأرض وسلام فى السماء »[1] .

أدرك الرسول ﷺ منذ بدء تكوين الدولة الإسلامية ، أن عدوه الأكبر قريش وأنها سوف تناوىء المسلمين فى المدينة ، لذلك نراه حين وضع الصحيفة التى نظم بها العلاقات فى المدينة والتى تعتبر دستورا للدولة الإسلامية الناشئة ، نجده ﷺ قد ضمنها شرطا وهو أن حرم على أهل الصحيفة أن يجير أحدهم مالا أو نفسا لقريش كما بدأت سرايا المدينة فعلا تتجه نحو الطرق التى تعبرها قريش بتجاراتها إلى الشام وإن كانت هذه السرايا استطلاعية فقط لم تقم بأى دور عسكرى . بدأ الرسول ﷺ يبعث سرايا وبعوثا إلى بعض القبائل والنواحى ولم تكن حربا بل مناوشات كانت تفيد فى إلقاء الرعب فى قلوب المشركين . وتظهر قوة المسلمين وشوكتهم[3] .

وكانت سرية عبد الله بن جحش[4] التى اتجهت إلى بطن نخلة بين مكة والطائف . والتى كانت مهمتها استطلاع حال قريش والوقوف على أخبارها فقط دون قتال يؤكد ذلك أن عدد أفراد السرية لم يتجاوز الثمانية[5] . وتطورت الأحداث حين التقوا بعير لقريش

---

(١) سيد قطب : ظلال القرآن جـ ١ ص ٢٠٧ .

(٢) ابن هشام : السيرة جـ ٢ ص ١٢١ .

(٣) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٦٩ وما بعدها . الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ٤٠٢ .

(٤) ابن هشام : السيرة جـ ٢ ص ٢٣٨ وما بعدها . الكتانى : الترتيب الادارية . جـ ١ ص ٣١٩ .

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ٩٠ .

فيها عمرو بن الحضرمي الذى رموه بسهم فقتلوه ثم أسروا اثنين من قريش وكان ذلك فى آخر يوم من رجب فى العام الثانى للهجرة . وقدم عبد الله بن جحش بالأسيرين والعير على رسول الله ﷺ بالمدينة . وأبى الرسول أن يأخذ من العير شيئا وقال لهم ما أمرتكم بقتال ، وعنف المسلمون أفراد تلك السرية لقتالهم فى الشهر الحرام . وأخذت قريش تشهر بالرسول والمسلمين الذين يقاتلون ويسفكون الدماء فى الشهر الحرام[1] . فأنزل الله تعالى :

○ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ ﴾[2]

ولقد سُرَّ المسلمون بنزول تلك الآيات وخفف عنهم ما كان بهم من هم وقبض النبى ﷺ العير والأسيرين[3] ، فعزل خمس العير وقسم سائرها لأصحابه ، فكان أول خمس قسم فى الإسلام[4] .

---

(١) ابن هشام : السيرة جـ٢ ص ٢٤١ .
(٢) سورة البقرة آية ٢١٧ . ابن كثير : التفسير : جـ١ ص ٢٥٢ .
(٣) ابن هشام : السيرة جـ٢ ص ٢٤١ . السمهودى : وفاء الوفا جـ١ ص ٢٧٥ .
(٤) تاريخ اليعقوبى جـ٢ ص ٧٠ .

والواقع أن هذه السرية كانت علامة على الطريق فى سياسة الدولة الإسلامية الناشئة والقرآن الكريم يجيب كفار قريش على تساؤلهم عن القتال فى الشهر الحرام ، يتفق معهم على أنه أمر كبير ، لكنه يوضح أن هناك ما هو أخطر منه وأكبر فالكفر بالله والصد عن سبيله وإخراج المهاجرين من ديارهم بالحرم وفتنة المسلمين عن دينهم كل ذلك أكبر وأخطر من القتال فى الشهر الحرام . فإذا كانت قريش تعتبر القتال فى الأشهر الحرم من المحرمات ، فما تفسيرها وما قولها فيما تقوم به من الصد عن سبيل الله والكفر به وإخراج أهل الحرم منه وفتنتهم عن دينهم ؟ ـ ويؤكد القرآن أن الكفار لا يزالون يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا . وعلى ذلك يقر القرآن ما قام به المسلمون من القتال فى الشهر الحرام بعد أن وقع بهم من قريش ما وقع .

وفى ذلك يقول ابن قيم الجوزيه « والمقصود أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والانصاف ، ولم يبرىء أولياءه من ارتكاب الاثم بالقتال فى الشهر الحرام بل أخبر أنه جبير ، وأن ما عليه أعداءه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال فى الشهر الحرام فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة [1] .

كانت هذه السرية علامة بارزة على طريق الاستراتيجية الإسلامية إذا أخذ المسلمون بعدها يفكرون تفكيرا جديا فى التصدى لقريش والوقوف فى وجه أعداء الدعوة موقفا شديدا صلبا ، وحتى أن الأنصار سيشتركون بعد ذلك مع المهاجرين فى جهاد أعداء الدعوة

(١) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد جـ ١ ص ٣٤١ . ابن كثير : التفسير جـ ١ ص ٢٥٢ وما بعدها .

الإسلامية أن السرايا الثمانية الأولى التى تمت من قبل قام بها المهاجرون[1] فقط ولكن بعد نزول تلك الآيات سيشترك الأنصار مع المهاجرين فى المعارك لأنه جهاد وسيكون ذلك واضحا جليا عقب ذلك بأكثر من الشهر بقليل وذلك حين خرجوا جميعا فى غزوة بدر الكبرى[2] .

ثم أنزل الله عليهم :

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾[3]

أى وقاتلوهم حتى لا يفتن أحد عن دينه[4] . إن الذى يعنيه هذا النص : « ويكون الدين كله لله » هو إزالة الحواجز المادية المتمثلة فى سلطان الطواغيت ، وفى الأوضاع القاهرة للأفراد ، فلا يكون هناك ـ حينئذ ـ سلطان فى الأرض لغير الله ، لا يدين العباد يومئذ لسلطان قاهر إلا سلطان الله . ولا تكون هناك دينونة لسلطان سواه . فمن قبل هذا المبدأ وأعلن استسلامه له ، قبل منه

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٢ ص ٦ . ونلاحظ أن الأنصار حين بايعوا النبى ﷺ بيعة العقبة الكبرى تعهدوا أن يحموه ما دام فى المدينة لا أن يقاتلوا معه خارجها . تراجع سيرة ابن هشام .

السمهودى : وفاء الوفا جـ١ ص ٢٧٦ .

(٢) ابن هشام : السيرة جـ٢ ص ٢٥١ .

(٣) سورة الأنفال آية ٣٩ .

(٤) ابن العربى : أحكام القرآن المجلد الثانى ص ٨٥٤ .

المسلمون ، ومن تولى وأصر على مقاومة سلطان الله قاتله المسلمون معتمدين على نصرة الله[1] .

○ ـــــــــــــــ ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾[2]

وقال تعالى :

○ ـــــــــــــــ ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ ﴾[3]

هكذا فى المدينة يتوالى نزول الآيات التى تتحدث عن القتال كجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله وإقرار وحدانيته ، تحدثت تلك الآيات عن الحرب والاستعداد لها وأسبابها والأسرى الغنائم والاستشهاد ومنزلة الشهداء وكيفية معاملة الأسرى والشروط التى يجب توافرها أثناء القتال ، وكل ما يتعلق بالحرب من قريب أو بعيد : ومن السور التى تناولت القتال وما يتعلق به نجد سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والأنفال ، والتوبة ، الرعد ، الحج ، الأحزاب ، محمد ، الفتح ، الحجرات ، الحديد ، الحشر ، الممتحنة ، الصف ، التحريم ، النصر ، وذلك بحسب ترتيبها فى المصحف الشريف .

ومن أهم الآيات التى حثت على الجهاد وأوجبته قوله تعالى :

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القران جـ٣ ص ١٥٠٩ .

(٢) سورة الحج آية ٧٨ .

(٣) سورة النساء آية ٩٥ .

○ ــــ ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ
وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ ﴾ (١)

وقال تعالى فى سورة الأنفال :

○ ــــــ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ ﴾

وقال تعالى فى سورة النساء :

○ ــــــــــ ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾
وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ
هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا
وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ (٢)

---

(١) سورة البقرة آية (١٩٠ ـ ١٩١) ابن كثير : تفسير القرآن جـ ١ ص ٢٢٦ وما بعدها .

(٢) سورة النساء آية ٧٤ ـ ٧٥ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد ١ ص ٢٨٩ .

وقال أيضا فى سورة النساء :

○ ـــــــــ ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ ﴾ (١)

وقال تعالى فى سورة التوبة :

○ ـــــــــ ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ (٢)

وقال أيضا فى سورة التوبة :

○ ـــــــــ ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٣)

وقال تعالى فى هذه السورة مخاطبا المؤمنين :

○ ـــــــــ ﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (٤)

---

(١) سورة النساء آية ١٠٤ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد ١ ص ٣٠٢

(٢) سورة التوبة آية ٢٩ . الصابونى : صفوة التفاسير جـ ١ ص ٥٣٠ .

(٣) سورة التوبة آية ٣٦ . الصابونى : صفوة التفاسير جـ ١ ص ٥٣٤ .

(٤) سورة التوبة آية ٤١ . الصابونى : صفوة التفاسير جـ ١ ص ٥٣٦ .

ووصف الله المؤمنين بأنهم هم الذين - « جاهدوا بأموالهم وأنفسهم » فى سورة التوبة مرتين .

كما قال تعالى فى نفس السورة :

○ ـــــــــــ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ (١)

وجاء فى سورة الحج :

○ ـــــــــــ ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ ﴾ (٢)

وقال تعالى فى سورة آل عمران :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (٣)

---

(١) سورة التوبة آية ١١١ . الصابونى : صفوة التفاسير جـ١ ص ٥٦٤ .
(٢) سورة الحج آية ٧٨ . الصابونى : صفوة التفاسير جـ١ ص ٣٠٠ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٣٩ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد ١ ص ٢٣١ .

وتنطلق السورة موضحة الوعد الإلهى الصادق للمجاهدين قائلة :

○ ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (١)

ثم يقول تعالى فى نفس السورة مؤكدا أهمية الجهاد مبينا أجر المجاهدين ومكانة الشهداء فيقول :

○ ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (٢)

وقال تعالى فى سورة النساء حاثا على الجهاد مبينا فضل المجاهد :

○ ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٧ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد ١ ص ٢٣٨ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٩٥ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد ١ ص ٢٥٣ .

وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ
وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى فى سورة محمد :

﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٤﴾
سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا
لَهُمْ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (٢)

وفى نفس المعنى حث على الجهاد فى سبيل الله ، قال تعالى فى سورة الصف :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ
عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ

---

(١) سورة النساء آية ٩٥ .

(٢) سورة محمد آيات ٤ - ٧ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد ١ ص ٢٠٧ .

﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى فى سورة البقرة :

○ ——— ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ (٢)

وقال :

○ ——— ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ (٣)

هكذا جاءت السور المدنية موضحة فكرة الجهاد الإسلامى ، وهكذا فرض الله تعالى قتال الكافرين على المسلمين فرض عين ، وفرض كفاية حسب المواقف والحالات ومدى الضرورة ووضع له التشريعات الخاصة بكل ما يتعلق به . ونؤكد حقيقة هامة وهى أن الإسلام لم يفرض القتال عدوانا على أحد إنما فرضه للدفاع عن النفس إذا كان هناك اعتداء ، وكذلك للدفاع عن الدعوة الإسلامية إذا وقف أحد فى سبيلها بفتنة من آمن بها ، اى بصد من أراد الدخول فى الإسلام عن تلك العقيدة أو الوقوف فى وجهها بأى طريق كان .

---

(١) سورة الصف آية ١٠ ـ ١٢ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد ١ ص ٣٧٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢١٦ .

(٣) سورة التوبة آية ٥ .

ولما كانت السلطة التشريعية لرسول الله وحده[1] آنذاك . وكل ما صدر عنه هو تشريع للمسلمين وقانون واجب عليهم أن يتبعوه ، سواء أكانت من وحى الله أو من اجتهاده ، ولما كانت السنة هى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد الكتاب ، لذلك نجد أنها سارت مسارا للكتاب تشجع على الجهاد وترغب فيه فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم الدائم الذى لا يفتر .. من صلاة ولا صيام حتى يرجع »[2] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قيل يا رسول الله أى الناس أفضل ؟ فقال ﷺ : مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله[3] . وجاء فى البخارى أنه ﷺ قال : « أعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » . ولقد بايع النبى ﷺ الصحابة ، بايعوه على الطاعة ، يطيعونه فيما يكلفهم به من الأمر على المنشط والمكره وعلى الجهاد ، وعلى الصبر وعدم الفرار ولو وقع الموت ، فكان الجهاد ضمن ما بايعوا النبى عليه .

وقال ﷺ من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا .

والواقع أن هناك كثير من الأحاديث الصحيحة التى تحث على القتال فى سبيل الله وتوضح مكانة المجاهد والشهيد والأجر الذى

---

(١) عبد الوهاب خلاف : خلاصة تاريخ التشريع الإسلامى ص ١١ .
(٢) السيوطى : تنوير الحوالك شرح موطأ مالك جـ ٢ ص ٢ يراجع باب الجهاد .
(٣) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى المجلد السادس ص ٦ باب الجهاد .

ينتظره بما لا يتسع له المجال هنا[1] حتى أن المسلمين الأوائل كانوا يتمنون الشهادة ويسعون إليها سعيا راغبين فى نيل تلك الدرجة الرفيعة تشهد بذلك كل مصادر التاريخ الإسلامى .

الجهاد الإسلامى الذى حمل لواءه المؤمنون الصادقون نتج عنه حركة الفتوحات الإسلامية الكبرى . وامتد الإسلام باستمرار حركة هذا الجهاد الدينى المقدس . تلك الفتوحات التى تمت فى مرحلة زمنية قصيرة والتى لا زالت تدهش المؤرخين فى الشرق والغرب . ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نوضح حقيقة هامة هى أن الإسلام كعقيدة انتشر بسماحته وتعاليمه ، ولم ينتشر أبدا بحد السيف ، فالعقائد لا تنتشر إلا بتمكنها من النفوس وتغلغلها فيها .

لقد انخدع كثير من الناس فى المدلول اللغوى الظاهرى للجهاد الإسلامى وحسبوا أن إخضاع الناس لعقيدة الإسلام وإكراههم على قبولها هو « الجهاد فى سبيل الله » ولكن الحق أن « سبيل الله » فى المصطلح الإسلامى أوسع وأرحب بكثير مما يتصورون وأسمى غاية وأبعد مراما مما يظنون ، ولقد قرر الإسلام أنه « لا إكراه فى الدين »[2] كما قال تعالى :

○ ——— ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[3]

فى سبيل الله أى فى سبيل حماية العقيدة الإسلامية والمنهج الإسلامى الذى تتمثل فيه والمجتمع الذى يسود فيه هذا المنهج . ثم بعد ذلك حماية دار الإسلام ، التى هى حقل هذا المنهج ونقطة

---

(١) يراجع الصحيحان : البخارى ومسلم باب الجهاد . كذلك بقية السنن .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٦ . (٣) سورة يونس آية ٩٩ .

الانطلاق وقاعدته إلى الإنسان فى كل مكان . والانطلاق بالمنهج الالهى تقوم فى وجهه عقبات مادية قد تكون حكومات كافرة أو نظام المجتمع وأوضاع البيئة ، وهذه كلها هى التى ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة كى يخلو له وجه الافراد من الناس يخاطب ضمائرهم وأفكارهم بعد أن يحررها من الأغلال المادية . ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار(١) .

والإسلام دعوة لتحرير الإنسان فى الأرض . تلك الدعوة تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد تخاطبهم بحرية لا تأثير لأحد عليهم . فهنا لا إكراه فى الدين . أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية التى يخشى الناس اعتناق الإسلام بسببها فلا بد من إزالتها أولا بالقوة للتمكن من مخاطبة عقل الإنسان(٢) . ويجادلهم بالتى هى أحسن فالإسلام يخاطب العقول ويقنعها لا يجبرها . قال تعالى :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٣)

وقوله :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾(٤)

وقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾(٥)

---

(١) سيد قطب : ظلال القرآن جـ٣ ص ١٤٤١ . ٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٤٠ . سورة الزخرف آية ٣ .

(٣) سورة يوسف آية ٢ .

(٤) سورة العنكبوت آية ٤٣ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٦٦ .

وقوله :

﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١)

ولقد تكررت فى القرآن كلمات تتفكرون ، تتدبرون ، تتذكرون ، وتكرار تلك الكلمات كثيرا يوضح أن الإسلام يخاطب العقول . ولقد أناط التكليف الشرعى بالعقل والبلوغ وجعل العقل مدار التكليف وبه تميز الإنسان عن سائر المخلوقات .

ثم إن أى دارس للتاريخ الإسلامى يدرك تماما أنه كانت هناك مرحلة زمنية ، بين الفتح السياسى والفتح الدينى بما يؤكد أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف .

والواقع أن المسلمين بهجرتهم من مكة إلى يثرب أخذ عددهم فى الازدياد وبدأت تتكون منهم أمة . لذلك اتضحت الحاجة إلى سن القوانين لتنظيم علاقة أفراد تلك الأمة الناشئة بعضهم ببعض ، وعلاقتهم بغيرهم ، أى ظهرت الحاجة إلى التشريع ، لذا شرعت بالمدينة كثير من الأحكام ، فالسور المدنية مثل سورة البقرة ، آل عمران ، والنساء والمائدة ، والأنفال والتوبة ، والنور ، والأحزاب ، كل تلك السور مليئة بآيات الأحكام . وعلى ذلك فتنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم فى الحرب والسلم جاءت أحكامه فى المدينة ضمن ما جاء من أحكام بناء على حاجة تشريعية تطلبته .

والخلاصة أن المشركين ناوءوا النبى ﷺ وآذوه هو وأصحابه وأخرجوهم من ديارهم فلم يكن أمامه إلا أن يحمى دعوته ويؤدى

---

(١) سورة الأنعام آية ٥٠ .

رسالته ويمنع الاضطهاد عن أتباعه . فكان لابد من القتال لذلك شرع .

والتشريع الإسلامى بصفة عامة تميز بالتدريج الزمنى فالأحكام التى شرعها الله ورسوله لم تشرع دفعة واحدة فى قانون واحد[1] إنما شرعت متفرقة فى مدى اثنتين وعشرين سنة وبضعة أشهر حسب ما اقتضاها من الحوادث . وهكذا جاء تشريع القتال متدرجا لقد كف الله المسلمين عن القتال فى مكة .

○ ———— ﴿ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [2]

٢ ـ ثم أذن لهم فيه

○ ———— ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [3]

٣ ـ فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم .[4] .

○ ———— ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ [5]

---

(١) عبد الوهاب خلاّف : خلاصة تاريخ التشريع الإسلامى ص ١٨ .
(٢) سورة النساء آية ٧٧ .
(٣) سورة الحج آية ٣٩ .
(٤) الجصاص : أحكام القرآن جـ ١ ص ٢٥٧ .
(٥) سورة البقرة : آية ١٩٠ .

٤ ـ ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة .

○ ـــــ ﴿ وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ [(١)]

هكذا كان القتال كما يقول الإمام ابن القيم : « محرما ، ثم مأذونا به ، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأمورا به لجميع المشركين » [(٢)] .

(١) سورة التوبة : آية ٣٦ .
(٢) سيد قطب : ظلال القرآن جـ ٣ ص ١٤٣٧ .

الفصل الرابع

ما هو الجهاد وما أهدافه ؟

١ ـ الجهاد هو القتال واعداد القوة المادية واستخدامها فى سبيل الله[1] وذلك لارهاب اعداء الله ومقاومة سلطانهم ، دون أى دافع دنيوى . انما يكون الدافع إلى القتال هو باعث الايمان بالله والتصديق برسالته . ولا يدخل الدفاع عن المال أو العرض أو الأرض أو أية مصلحة مادية فى هذا ، فانه دفاع مأذون به شرعا وان لم يكن فى مفهوم الإسلام جهادا فى سبيل الله ، ما لم يتحقق منه الركن الإساسى للجهاد فى سبيل الله . هذا من حيث الدافع أو الباعث .

٢ ـ أما من حيث المطلب أو الرغبة التى يسعى لتحقيقها فى الدنيا ويضع حياته ثمنا لذلك ، فالمجاهد يقتل أو يقتل فى سبيل مطلب يتحقق فى الدينا هو التمكين لدين الله واعلاء كلمته ، ضد من يصدون عن سبيله[2] .

٣ ـ ثم هناك غاية نهائية بعيدة يرجوها عند الله وهى نيل رضوانه ، والدرجة العالية من الجنة والظفر بما وعد الله المجاهدين من أجر عظيم إذا ما ظفروا بالشهادة .

وهكذا يمكننا أن نقول أن الجهاد بالقتال له دوافع تتمثل فى الايمان العميق بالله ورسالته . ثم له مطلب عاجل هو اعلاء كلمة

(١) قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » سورة الأنفال آية (٦٠) . الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٣٥ موسوعة فقه عبد الله بن مسعود ص ٢٠٢ .

(٢) ابن حجر · فتح البارى جـ ٦ ص ٢٧ وما بعدها الصابونى : صفوة التفاسير المجلد ١ ص ٢٩٠ .

الله والتمكين لدينه ودولته وتطبيق منهجه ، وله غاية بعيدة هى نيل مرضاة الله وجنته وما أعده للمجاهدين . ونؤكد أن الجهاد بالقتال يكون لرد العدوان أو ردع الفتنة الدينية . عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ سئل : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، والرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل غضبا ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] .

جاءت العقيدة الإسلامية لتكون قاعدة للحياة البشرية على وجه الأرض ولتكون منهجا عاما للبشرية جميعها ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية وفق هذا المنهج السماوى الكامل إلى الخير . ومن حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة اليهم أحرارا فى اعتناق هذا الدين لا تصدهم ولا تمنعهم عنه عقبة أو سلطة ، ومن أعتنق هذا الدين لا يفتن ولا يصد عنه . ومن هنا أصبح من واجب المسلمين الدفاع عن هؤلاء بالقوة ضد من يتعرض لهم بالأذى ليفتنهم ، وذلك ضمانا لحرية العقيدة واقراراً لمنهج الله فى الحياة .

فالجهاد أذن لتحطيم كل قوة معتدية تعترض طريق الدعوة الإسلامية وابلاغها للناس فى حرية تامة بحيث لا يخشى أن يدخل فى هذا الدين من يريد اعتناقه ولا يخاف قوة فى الأرض تصده عن دين الله . فالجهاد فى الاسلام شرع حماية للبشرية كلها أن تحرم من

---

(١) ابن حجر : فتح البارى جـ ٦ ص ٢٧ وما بعدها . النووى الدمشقى : رياض الصالحين باب الجهاد ص ٥١٣ .

هذا الخير . فالجهاد هو القتال فى سبيل الله[1] لاعلاء كلمة الله ، لا لسبب دنيوى آخر . قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ ﴾[2]

قبيل معركة القادسية سأل القائد الفارسى رستم ، كلا من ربعى بن عامر ، وحذيفة بن محصن ، ثم المغيرة بن شعبة . سأل كلا منهم على حده فى ثلاثة أيام متتالية سألهم ما الذى جاء بكم ؟ فكان جوابهم : « أن الله بعثنا لنخرج عباده من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه فمن قبله قبلناه منه وتركناه وأرضه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر »[3] .

وقد عقد ابن تيمية ـ فصلا فى رسالته عن القتال بحث فيه الباعث على القتال ، أهو اعتداء الكفار على الإسلام ورد عدوانهم ؟ أم الباعث على قتال الكفار كفرهم ؟ وذكر ابن تيمية أن ثمة اختلافا بين الفقهاء فجمهورهم يقرر أن الباعث على القتال هو الاعتداء على المسلمين ، وذهب القلة من الشافعية إلى أن الباعث على قتال الكفار هو كفرهم والتمكين للدعوة الإسلامية التى هى أمانة فى عنق

---

(١) موسوعة فقه عبد الله بن مسعود ص ٢٠٢ .
(٢) سورة النساء آية ٧٦ . الصابونى صفوة التفاسير المجلد الأول ص ٢٩٠ .
(٣) الدنيورى : الأخبار الطوال ص ١٢١ .
ابن خلدون : كتاب العبر جـ ٢ ص ٩٥ .
سيد قطب : ظلال القرآن جـ ٣ ص ١٤٤٠ .

المسلمين إذ أن عليهم الدعوة إلى الإسلام حتى تكون كلمة الله هى العليا .

وعلى ذلك نميل إلى رأى المحققين من فقهاء المالكية والحنابلة والاحناف الذين اتفقوا على أن الباعث على القتال هو الاعتداء وليس الكفر . ولقد قال الرسول ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » . ولقد ثبت بالنص والاجماع أن أهل الكتاب إذا أدوا الجزية حرم قتالهم ، وكذلك المجوس مع أنهم ليسو أهل كتاب(١) .

ورأى الجمهور هو الذى يشهد له القرآن والسنة وأعمال اصحابه كما يقول ابن تيمية الذى رجح رأى الجمهور وقد احتج من القرآن بقوله تعالى :

﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾(٢)

وقال :

﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾(٣)

---

(١) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة جـ١ ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) سورة البقرة آية ١٩٠ . تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٢٦ وما بعدها . سيد قطب الظلال جـ١ ص ٧٧ .

(٣) سورة البقرة آية ١٩٣ . تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٢٧ . وما بعدها .

وقال :

○ ——— ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ (١)

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢)

وقال :

○ ——— ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٣)

واستدل من السنة بأنه ﷺ كان يدعو مسالما والمشركون يؤذونه . وقد اعتدوا على أصحابه ليفتنوهم عن دينهم ، وكان يدعو بالموعظة الحسنة حتى أرادوا أن يقتلعوا الإسلام من جذوره بقتل النبى ، فخرج عليه السلام مهاجرا . ومنذ ذلك الوقت بعد استقرار الإسلام فى المدينة ، اتجه الرسول إلى قتال المشركين ليحمى الدعوة وليمنع الفتنة ، فالفتنة أشد من القتل .

وخلاصة القول أن الحرب ضرورة لدفع العدوان وقمع الفتنة التى هى أعظم ضرراً من القتال . يقول تعالى :

---

(١) سورة التوبة آية ٣٦ . تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٣ .
(٢) سورة البقرة آية ١٩٤ . تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٢٨ وما بعدها . سيد قطب . الظلال جـ ١ ص ١٩١ وما بعدها .
(٣) سورة النحل : آية ١٢٦ تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٢ .

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[1]

فالحرب ابغض الأشياء إلى الإسلام فقوام الحرب قتل النفس البشرية ولذلك ذكر القرآن الكريم أن الحرب أمر مبغض للمؤمنين لا يحبونه وإن كانوا يقبلونه إذا أمر الله تعالى به وكتبه عليهم لأنه خير لهم . وهذا الأمر المبغض قد تقتضيه الرحمة الإنسانية ذاتها ، لأن ترك الطغيان يتحكم فى الضعفاء لا يكون من الرحمة فى شىء والرحمة الحقيقية توجب دفع[2] الطغيان والقضاء عليه . قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[3]

وقد قال النبى ﷺ فى وصف دعوته : « أنا نبى المرحمة وأنا نبى الملحمة » والواقع أن المرحمة والملحمة متفقتان متلاقيتان فلقد كانت الملحمة من أجل المرحمة . والمرحمة هنا أو الرحمة تتمثل فى القضاء على الفساد والشر والطغيان وحماية الضعفاء من سطوة الطغاة .

قال تعالى فى سورة العنكبوت :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥١ .

(٢) أبو زهرة : العلاقات الدولية ص ٨٩ .

(٣) سورة الحج : آية ٤٠ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد الثانى ص ٢٩٢ .

﴿ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

هكذا كان أمر الله مع الكافرين برسالات السماء وأنبيائها السابقين أهلكهم الله وان تعددت وسائل هلاكهم(٢) . قد يكون الغرق وزلزلة الأرض ، والخسف بالناس وجاءت الصيحة والصاعقة ، والريح العاتية . ذلك أن رسالات جميع الأنبياء السابقين كانت محلية وزمنية .

---

(١) سورة العنكبوت آية ٣٧ - ٤٠ .

(٢) الصابونى : صفوة التفاسير المجلد الثانى ص ٤٦٠ . وما بعدها .
سيد قطب : فى ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧٣٦ .
ابن كثير : التفسير جـ ١ ص ٣٠٢ وما بعدها .

أما رسالة الإسلام خاتم الرسالات فليست محددة بزمان ولا مكا فالإسلام للناس كافة ، والإسلام صالح لكل زمان ومكان فمن الذى يتولى تأديب المارقين عن الإسلام ، أهم الملائكة ؟ وإذا جاءت الملائكة فى عهد النبى ﷺ فهل ستأتى بعده لتؤدب الكافرين وهل للملائكة رسالة بعد عودة الأنبياء إلى ربهم . لذلك فوض الله المسلمين بمنهج القتال ليحملوا عن الملائكة مهمة تأديب المارقين عن الإسلام .

فالقتال فى نظر الدعوة الإسلامية منهج وليس ضرورة ، انما هو منهج يستخدم عند الضرورة التى تجعله وحده هو الوسيلة لعلاج مؤقت ما .

ويمكننا تلخيص بواعث الجهاد فيما يلى :

١ ـ يستخدم القتال دفعا لهجوم متوقع بعده الأعداء وذلك مثلما حدث فى غزوة حنين وحصار الطائف حين أجتمعت هوازن وثقيف بعد فتح مكة بقيادة مالك بن عوف النمرى .

٢ ـ يقع القتال للدفاع عن الدين والأرض مثل ما حدث فى أحد والخندق حين تجمعت الأحزاب لضرب الإسلام .

٣ ـ القتال يقع ضد من ينقض العهد والمواثيق[١] أى المعاهدات مثل ما حدث مع بنى قينقاع ، وبنى النضير وبنى قريظه ، وفتح مكة .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى : جـ١٢ ص ٩٢ .
موسوعة فقه عثمان بن عفان ص ١٣٠ .

٤ ـ القتال يقع لتأمين المسلمين إذا تعرض لهم من يفتنهم عن دينهم . أو بمنع الداعى من تبليغ دعوته[١] .

(١) أبو زيد شلبى : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٤٨ .

الفصل الخامس

أصل العلاقات الانسانية فى الاسلام

نتساءل الآن : ما هو الأصل فى العلاقات الإنسانية بين المسلمين وغيرهم أهى الحرب ؟ أم السلم ؟ ما الذى قرره الإسلام فى ذلك ؟

إذا نظرنا إلى العلاقات الدولية قبل الإسلام نجد أن العالم كان يحكمه قانون الغاب ، القوة هى المنطق الذى يحكم العلاقات بين المجتمعات والأمم . كان يمكن لأى دولة أن تعتدى على الأخرى إذا كانت لديها القدرة على ذلك ، كل دولة تبغى على الأخرى ولا مانع يمنعها الا أن تكون ضعيفة لا تقوى على الاعتداء أويكون ثمة ميثاق عدم اعتداء . فجاء الإسلام هاديا للبشرية كلها منظما للعلاقات على أساس من العدل المطلق رفض القتل والاستعباد والقهر واستغلال الشعوب .

الإسلام دين السلام جعل للسلام شأناً كبيراً فى الدنيا والآخرة ودعا اليه . قال تعالى :

○ ——————— ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ

﴿ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ :(١)

السلام شعار هذه الأمة ، وقد نص الحديث على أنه تحية البشرية التي علمها الله لآدم تحية له ولذريته(٢) ، يلزم الجهر به وافشاؤه . بل أن افشاء السلام هو طريق إلى الجنة كما جاء فى الأحاديث الصحيحة . قال رسول الله ﷺ : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أو لا أدلكم على شىء أن فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم(٣) وقد عقد النووى فصلا تناول فيه أحاديث الرسول ﷺ التى تناولت السلام(٤) ووضحت فضله وحثت على التمسك به .

يروى الامام البخارى : « السلام اسم من اسماء الله (٥) تعالى وضعه الله فى الأرض فأفشوه بينكم » وقد جعل القرآن الجنة دار

---

(١) سورة المائدة : آية ١٥ ـ ١٦ سيد قطب : فى ظلال القرآن المجلد الثانى ص ٨٦١ وما بعدها .

(٢) النووى الدمشقى : رياض الصالحين . كتاب السلام ص ٣٦٥ وما بعدها . ابن منظور لسان العرب المجلد ١٢ ص ٢٨٩ .

(٣) النووى الدمشقى : رياض الصالحين عن رواية مسلم ص ٣٣٦ .

(٤) السلام : اسم من أسماء الله عز وجل لسلامته من النقص والعيب والفناء ، ولأنه سلم مما يلحق الغير من الآفات تفنى الخلق ولا يفنى . وعن يحيى بن جابر أن أبا بكر قال : السلام أمان الله فى الأرض . والسلام جمع سلامة . والسلام ضد الحرب . (لسان العرب المجلد ١٢ ، ص ٢٨٩ ـ ٣٠١) .

(٥) الأزرقى : أخبار مكة جـ ١ ص ٢٧٨ ، ابن منظور : لسان العرب المجلد ١٢ ص ٢٩٠ وما بعدها .

السلام : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » . دعا الإسلام إلى السلم فى كافة أحواله وأعتبر الحرب من أغراء الشيطان ، ومن يسير فيها انما يسير فى خطوات الشيطان[1] وصرح بأن من يلقى السلام لابد من الامتناع عن قتاله ، ولقد صرح فوق ذلك بأن من يلقى السلام لا يصح أن يقاتل بدعوى أنه غير مؤمن[2] .

هكذا قرر الإسلام أن الأصل فى العلاقات الانسانية هو السلام ولا شك أن الحرب فى الإسلام ليست هى الأصل الذى ينظم العلاقات . حقيقة شرع الإسلام القتال ولكنه جعله لأسباب واضحة بشروط محددة . الإسلام لا يسمح بأن يبدأ المسلمون بالحرب من غير دافع قوى يدعو اليها كرد العدوان وتأمين الدعوة .

الأصل فى العلاقات الإنسانية والدولية فى الإسلام هو السلم حتى يكون الاعتداء على الدولة الإسلامية فعلا أو بفتنه المسلمين عن دينهم . وهنا تكون الحرب ضرورة بمقتضى قانون الدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن الحرية الدينية . فالحرب فى الإسلام لم تشرع الا لاغراض وغايات سامية ، إما دفاعا عن النفس والوطن أو رد الظلم والعدوان ، وحماية العقيدة من الفتنة الدينية . لا يلجأ الإسلام إلى الحرب الا لدفع شر لا يدفع الا بها . لا رغبة فى القهر وأبهة السلطان والسيادة واستنزاف الثروات وسفك الدماء ، الإسلام يسالم من يسالمه . المسلمون لا يقاتلون الا لرد العدوان وكسر شوكته واعلاء كلمة الله .

(١) أبو زهرة : العلاقات الدولية ص ٤٧ .

(٢) قال تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا » . (سورة النساء آية ٩٤) .

الإسلام يدعو للسلام قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ (١)

وعلى ذلك فالعلاقة بين المسلمين وغيرهم هى السلم حتى يوجد داعى القتال ، وذلك هو رأى الجمهرة العظمى من الفقهاء[٢] الإسلام يدعو إلى السلام ولا يقبل الاستسلام للباطل ، ويرفض الخضوع له ، لذلك جاء التشريع بالقتال . وقد فرض القتال على المؤمنين ومع ذلك نجد القرآن الكريم يذكر أنه أمر مكروه لهم[٣] ولكنه ضرورة ملزمة ، اقتضتها الظروف حين اعتدى المشركون على النبى وأصحابه فى مكة حتى خرج منها ﷺ . ثم اعتداءاتهم على من بقى بمكة من المسلمين . ثم تضافر الكفار والمشركين وتعاونهم وذهابهم إلى المدينة لاقتلاع الدعوة من جذورها ، فكان لابد للمسلمين من قتالهم .

سار المسلمون دائما على ضوء فليسفة الإسلام لم يلجأوا للقتال الا أن تكون ضرورة . اتبع المسلمون سياسة المسالمة ما لم يكن هناك عدوان لأن السلام عو الأصل فى العلاقة بين الدولة الإسلامية

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٨ . سيد قطب : فى ظلال القرآن المجلد الأول ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٢) أبو زهرة : العلاقات الدولية ص ٥٢ .

(٣) قال تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » . سورة البقرة آية ٢١٦ . تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٢ .

وغيرها والحرب حالة طارئة[١] اقتضتها الضرورة ، وعلى ذلك فاذا أعلنت الدولة الإسلامية الحرب فان اشتراك رعايا الدولة فى الحرب يكون على قدر الضرورة ويعتبر من فروض الكفايات إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، الا إذا كان هجوم الاعداء شاملا مفاجئا حينئذ يعلن الامام النفير العام ويصبح القتال فرض عين على الجميع حتى تقاتل المرأة بغير اذن زوجها والولد بغير اذن والديه[٢] والعبد بغير اذن سيده .

هكذا يدعو الإسلام إلى السلم ويرفض العدوان وينكر ازهاق الأرواح وأراقة الدماء . لذلك يتجنب الحرب والقتال ما أمكنه ذلك كان الرسول ﷺ يقول : « لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فأصبروا »[٣] توجيه من الرسول بعدم التسرع والاندفاع للقتال . حرصا منه ﷺ على منع القتال . وإذا كان القتال أمراً لابد منه بين المسلمين واعدائهم فعلى القائد أن يعرض على الاعداء أن يختاروا أمراً من ثلاثة . فاما أن يقبلوا الإسلام ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وحينئذ تصبح أرضهم جزءا من دار الإسلام وإما الاستسلام ودفع الجزية نظير تأمينهم فيكون بينهم وبين المسلمين عهد وأمان وتصبح أرضهم دار عهد . وإذا رفضوا هذين العرضين كان الأمر الثالث وهو القتال وتصير أرضهم بذلك دار حرب .

---

(١) النواوى : العلاقات الدولية فى الشريعة الإسلامية ص ٥٦ .

(٢) ابن حجر : فتح البارى جزء ٦ ص ١٤١ موسوعة فقه عثمان بن عفان ص ٥١ .

(٣) النووى الدمشقى : رياض الصالحين ، باب الجهاد ص ٥١٥ .

قال أبو يوسف : « لم يقاتل رسول الله ﷺ قوما قط حتى يدعوهم إلى الله وإلى رسوله[1] .

وعن عبد الله بن عباس قال : « ما قاتل رسول الله ﷺ قوما قط حتى يدعوهم إلى الله »[2] .

ومن البلاد التى قبل الرسول منهم الجزية ولم يحاربهم « أرض هجر والبحرين[3] وأيله ، ودومة الجندل ، فهذه القرى التى أدت إلى رسول الله ﷺ الجزية ولقد كان على بن أبى طالب هو المختص بكتابة العهود وشروط الصلح التى كان يعقدها النبى ﷺ[4] ومن الجدير بالذكر أن النبى ﷺ أوصى بالوفاء بالعهود والالتزام بشروطها قال تعالى : « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » وقال النبى ﷺ « من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجة يوم القيامة » وقال : « من قتل نفسا معاهدة بغير حلها حرم الله عليه الجنة أن يشمها »[5] وجعل دية المعاهد كدية المسلم[6] وقال ﷺ : « الا أخبركم بخياركم ؟ خياركم الموفون بعهودهم » .

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٣٧١ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) ابن سلام : الأموال ص ١٣١ .
(كانت أرض البحرين تابعة للفرس وكان بها جالية عربية كبيرة وفى سنة ٨ هـ وجه إليهم الرسول ﷺ العلاء بن الحضرمى يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية فأسلم المنذر بن ساوى ، سيخت مرزبان هجر وجميع العرب وبعض العجم وأما أهل الأرض فقد صالحوا العلاء وكتب لهم كتابا » .
(٤) الكتانى التراتيب الادارية جـ ١ ص ١٢٣ . كرد على : الادارة الإسلامية فى عز العرب ص ١٣ .
(٥) ابن حجر : فتح البارى جـ ٦ ص ٢٧٠ .
(٦) كرد على : الادارة الإسلامية فى عز العرب ص ٩ .

ومن المعاهدات التى عقدها النبى ﷺ اتفاقه ومعاهدته مع اليهود الذين كانوا بالمدينة وفيها أشترط عليهم كما شرط لهم أخرى . كما عاهد النبى بنى ضمره وقد جاءت هذه المعاهدات لتنظيم السلم وتقريره وتأكيده . كما أنها جميعا لم يكن فيها أكراه على دين أوعقيده ، انما كانت لاستقرار السلام . قال تعالى :

○ ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (١)

وفى سورة براءة بعد أن اعلن البراءة من المشركين قال تعالى :

○ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (٢)

عناية من القرآن بالعهود حفاظاً على السلام وعن أنس أن النبى ﷺ إذا طرق قوما لم يغر عليهم حتى يصبح ، فان سمع أذانا أمسك . وكان ﷺ إذا بعث سرية قال لهم : « إذا رأيتم مسجدا

---

(١) سورة النحل آية ٩١ .
(٢) سورة التوبة آية ٤ .

أو سمعتم مؤذنا فلا تقتلوا أحدا »[1] ذلك هو هدى الإسلام ، المجاهدون ما خرجوا إلا لاعلاء كلمة الله . فان رأوا مسجدا أو سمعوا أذاناً ، انتفى سبب الغزو والجهاد فلا داعى للقتال .

وقد بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد سنة ١٠ هـ إلى الحارث ابن كعب بنحران[2] وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا ، وأمره أن قبلوا منه الإسلام واستجابوا له أن يقيم فيهم حتى يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ومعالم الإسلام ففعل وكتب بذلك إلى النبى ﷺ فأمره أن يرجع إلى المدينة ويحضر معه وفدهم ففعل[3] .

على نفس السنة سار أصحابه ﷺ . فعندما غزا سلمان الفارسى أرض فارس ، دعاهم أولا إلى الإسلام وعرضه عليهم على أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . ثم عرض عليهم الجزية دعاهم إلى ذلك ثلاثا فأبوا عليه فبدأ القتال[4] وهكذا فعل خالد بن الوليد فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه فقد دعا الفرس إلى أداء الجزية وهم مجوس[5] .

ومن أرض الصلح بعد وفاة النبى ﷺ بيت المقدس افتتحه عمر ومدينة دمشق افتتحها خالد بن الوليد ، ومدن الشام افتتحها يزيد بن أبى سفيان ، وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيده بن الجراح[6] . هذا على سبيل المثال لا الحصر مما يؤكد ايثار المسلمين للسلم على الحرب .

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٣٧٢ .
(٢) الطبرى : الأمم والملوك جـ٣ ص ١٢٦ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) أبى عبيد القاسم بن سلام : الأموال ص ٣٣ .
(٥) المصدر السابق ص ٤٢ .
(٦) أبى عبيد القاسم بن سلام : الأموال ص ١٣١ - ١٣٢ .

تلك هى روح الإسلام وتعاليمه نستخلصها من الكتاب والسنة قال تعالى :

○ ـــــــ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾[1]

تحذير من الله بعدم اتباع خطوات الشيطان فليس هناك الا اتجاهان ، اما الدخول فى السلم كافة ، واما اتباع خطوات الشيطان ، اما هدى الله واما ضلال الشيطان[2] ، والحرب اعتبرت من ضلال الشيطان .

ويقول تعالى :

﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾[3]

وقال تعالى :

○ ـــــــ ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[4]

هذه الآية نزلت فى السنة الثانية للهجرة بعد بدر وذلك مع المشركين . وقد عمل الرسول ﷺ بهذا الحكم فى صلح الحديبية سنة ٦ هـ واستمر يعمل به حتى نزلت سورة براءة .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٨ .

(٢) سيد قطب : ظلال القرآن جـ ١ ص ٢١١

(٣) سورة النساء آية ٩٠ .

(٤) سورة الأنفال آية ٦١ .

وقال تعالى :

○ ـــــــــ ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى :

○ ـــ ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

○ ـــــــ ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (٣)

فى تلك الآيات أحكام توضح رغبة الإسلام الاكيدة فى اجتناب القتال ما أمكن ذلك فالسلم هو الأصل والقاعدة : الجهاد ماض إلى يوم القيامة . فالإسلام نظام جاد وعقيدة متسامحة ، والجد لا يتنافى مع التسامح .

هكذا يفسح الإسلام المجال لكل فرصة للسلام . ثم يمنع المسلمين من البدء بالعدوان ولا يفوتنا أن الإسلام قد حرم الحرب فى

---

(١) سورة الممتحنة آية ٨ .

(٢) سورة التوبة آية ٦

(٣) سورة البقرة آية ١٩٠ . ابن كثير : التفسير جـ١ ص ٢٢٦ وما بعدها .

أربعة أشهر من السنة هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب .
قال تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ (١)

فلم يكن الرسول ﷺ يغزو فى الشهر الحرام الا أن يغزى .
فالإسلام بذلك لا يتوانى ولا يتردد لحظة فى قبول دعوة السلام والاستجابة لها ، فلم يثبت التاريخ مرة أن المسلمين رفضوا دعوة حقيقية للسلام . وكما يقول الشاعر شوقى :

والحرب فى حق لديك شريعة
ومن السموم الناقعات دواء

(١) سورة التوبة آية ٣٦ .

موقف الإسلام من مخالفيه
أهل الذمة فى الدولة الإسلامية

وقد أطلق على أهل الذمة « أهل الكتاب » وهم الذين لهم كتب منزّلة كاليهود والنصارى وممن لهم شبه كتاب مثل الصابئة والمجوس[1] ، وبعد الفتح الإسلامى خضعوا للمسلمين وأصبحوا فى ذمة الإسلام ولذلك أطلق عليهم أهل الذمة . وقد ورد ذكر « أهل الكتاب » فى القرآن فى آيات عديدة منها قوله تعالى :

○ ——— ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[2]

وأهل الكتاب عند الحنفية هم أصحاب الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وشيت وزبور داود[3] . وفى رأى الشافعية والحنابلة هم النصارى واليهود دون غيرهم دليلهم فى ذلك قوله تعالى :

﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾[4]

والشائع عند جمهور الفقهاء والمؤرخين أن « أهل الذمة » هم

(١) البلاذرى : فتوح البلدان جـ٢ ص ٣٢٧ ، ابو يوسف : الخراج ص ١٤٣ .
(٢) سورة آل عمران (آية ٦٤) .
(٣) أنزل على إبراهيم عشرة صحائف وعلى شيت ١٥ صحيفة (ابن الأثير : الكامل جـ ص ٢٩ - ٧٠) أما الزبور فقد أنزل على داود يحتوى على تسبيح الله وحمده والثناء عليه والتضرع له (عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٣١١) .
(٤) سورة الأنعام آية ١٥٦ .

اليهود والنصارى والصابئة والمجوس والسامرية[1] ولقد أجمعت المذاهب الإسلامية على أخذ الجزية من المجوس مستندة فى ذلك إلى قول الرسول ﷺ (سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحى نسائهم ولا آكلى ذبائحهم[2]) . ويفسر الدكتور الخربوطلى موقف الدولة الإسلامية هذا من المجوس أن الدولة الإسلامية كانت نظرتها بعيدة فهى وإن تركت المجوس على مجوسيتهم بعد الفتوحات الإسلامية فقد استوعبتهم واحتوتهم واثقة أنهم بعد جيل أو اثنين سيتحولون إلى الإسلام قطعا وقد أثبتت الوقائع ذلك فقد اعتنق غالبيتهم الإسلام[3] .

وقد شرع عقد الذمة بعد فتح مكة بدليل أن آية الجزية المتضمنة عقد الذمة وهى قوله تعالى :

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾[4]

الآية . إنما نزلت فى السنة التاسعة من الهجرة أى بعد فتح مكة[4] .

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٢٣٠ ، الماوردى ، الأحكام السلطانية ص ١٢٨ ، ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ص ١ .

(٢) توفيق سلطان اليوزبكى : أهل الذمة فى العراق ص ٤٠ ، دراسات فى النظم الإسلامية ص ١٨٠ .

(٣) الخربوطلى : الإسلام وأهل الذمة ص ٧٨ .

(٤) سورة التوبة (آية ٢٩) نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ عند مرجعه من غزوة تبوك والجزء الأول من سورة تبارك بيان القانون الإسلامى فى معاملة المشركين وأهل الكتاب (محمد على صفوة التفاسير جـ ١ ص ٥١٨) .

أهل الذمة فى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين

جاءت نظرة الإسلام لليهودية والمسيحية نظرة ود فقد اعترف بالرسالات السابقة عليه وآمن بالأنبياء الذين تقدموا محمدا ﷺ ، بل جعل الإيمان بكتب الله ورسله شرطا لصحة العقيدة الإسلامية . ولقد جاء شعاره ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ قال تعالى :

○ ــــــ ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ (١)

وعلى ذلك شهدنا التسامح والأمان الذى نعم به أهل الذمة والذى نصت عليه تشريعات الإسلام التى نظمت العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة ، سواء منها القرآن الكريم أو السنة . قال تعالى :

○ ــــــــــــــــ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٢)

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٤٦ .

وقال تعالى :

○ ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (١) .

. في هذه الآية يحث القرآن الكريم على الألفة والمودة بين المسلمين وأهل الذمة فأباح أكل ذبحائهم كما أباح زواج المسلم بالكتابية (٢) . وقد عامل النبي ﷺ أهل الذمة بكل التسامح وكتب عقود صلح لبعض أهل الذمة على أن يدفعوا له الجزية مثل يحنة بن رؤية صاحب أيلة وكان مقدارها عن كل حالم في السنة ديناراً وبلغ ذلك ثلاثمائة دينار (٣) . وكذلك أهل أذرح على مائة دينار في كل رجب ، وصالح أهل الجرباء على الجزية وكتب لهم كتاباً (٤) وكذلك صالح النبي ﷺ أهل نجران على ألفي حلة ثمن كل حلة أربعون درهما (٥) . وقد أورد البلاذري نصوص عهود الصلح هذه .

كما أوصى الرسول الخلفاء بالوفاء بحقوق أهل الذمة وحمايتهم

(١) سورة المائدة آية ٥ .
(٢) محمد على الصابوني : صفوة التفاسير جـ ١ ص ٣٢٨ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان جـ ١ ص ٧١ .
(٤) السابق نفسه ص ٧١ . ابن الأثير جـ ٢ ص ١٩١ .
(٥) البلاذري : فتوح البلدان جـ ١ ص ٧٧ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ٢ ص ٢٠٠ .

ورعايتهم وعدم تكليفهم ما يفوق طاقتهم قائلاً : (من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)[١] . كما قال ﷺ : (إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً)[٢] . وكان ﷺ يحضر ولائمهم ويعود مرضاهم ويزورهم ويقترض منهم حتى أنه توفى ودرعه مرهونة عند يهودى[٣] .

وكذلك كانت سياسة الخلفاء الراشدين فى معاملاتهم مع أهل الذمة . ساروا على نهج النبى ﷺ فنجد كتاب أبى بكر لأهل نجران مؤكدا فيه التزامه بعهد النبى لهم . كما نرى أبا بكر يوصى قواده فى حركة الفتوحات بأهل الذمة (لا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله فيطلبك الله بذمته) ، كما أوصاهم بأهل البلاد المفتوحة ورجال دينهم . وفى عهد عمر بعد اتساع الفتوحات جعل عمر الخراج على الأرض وفى رقابهم الجزية ويكون ذلك فيئاً للمسلمين[٤] . والجزية واجبة على جميع أهل الذمة ما خلا نصارى بنى تغلب وأهل[٥] نجران خاصة لأنهم عرب وتجب الجزية على الرجال دون النساء والصبيان ،

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٢٧ ، أبو يوسف : الخراج ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٥٧ ، عبد الكريم زيدان : أحكام الذميين والمستأمنين .

(٣) توفيق سلطان البوزيكى : دراسات فى النظم العربية ص ١٨٥ ، أحمد شلبى المجتمع الإسلامى ص ١٥٠ .

(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٧٠ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٥٣ . ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ص ٩٥ . البلاذرى فتوح البلدان ذكر البلاذرى أنهم لما فرضت عليهم الجزية أنفوا لأنهم عرب وهموا بالهروب وخشى عمر لجوءهم للبيزنطيين فصالحهم على أن تضاعف عليهم صدقة المسلمين عوضاً عن الجزية .

على الأغنياء ثمانية وأربعون درهماً ، والوسط أربعة وعشرون درهماً وعلى الفقراء اثنا عشر درهماً فى كل سنة[1] . وكان يأتى مع خراج العراق عشرة من أهل الكوفة ومثلهم من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله انه من طيب ليس فيه ظلم مسلم أو معاهد[2] . ولم تكن تؤخذ الجزية من مسكين أو مقعد ، ولا يضرب أحد من أهل الجزية فى جمعها ولا يقاموا فى شمس ولا ينالهم أذى بل يرفق بهم حتى يؤدوا ما عليهم . بل كانت توضع الجزية عمن يعجز عن أدائها لشيخوخته وحينما التقى عمر بشيخ يهودى يسأل للجزية والحاجة أرسل عمر إلى خازن بيت المال وأمره أن ينظر فى أمر هذا الشيخ وكل من على شاكلته قائلا : « أنظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إذ أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم » فوضعت عن هؤلاء وأمثالهم الجزية[3] ومما أوصى به عمر عند احتضاره « أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل عن ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم [4]» . كما أعطى المجذومين منهم من الصدقات وكان لأهل الذمة حرية العمل ، كان يمكنهم أن يباشروا أى نشاط اقتصادى رغبوا فيه أو أى عمل أرادوه ورأى الفقهاء أن أهل الذمة فى سائر المعاملات والتجارات من بيع وشراء وسائر التصرفات كالمسلمين فيما عدا الربا المحظور على المسلمين والذمة على

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٥٢ . فون كريمر : الحضارة الإسلامية ص ٨٣ . أبو يوسف الخراج ص ٢٥٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٠ .

(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٤) الجاحظ : البيان والتبيين : جـ ٢ ص ٦٢ - ٦٣ . أبو يوسف : الخراج ص ٤٩ . توماس أرنولد ص ٧٥ .

السواء وذلك لأن النبى ﷺ كتب إلى مجوس هجر : (إما أن تذروا الربا أو تأذنوا بحرب من الله ورسوله)[1] .

وكذلك كان حالهم زمن عثمان رضى الله عنه فقد كتب إلى عماله يوصيهم بأهل الذمة خيراً « لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم »[2] وعلى نفس المنهج سار على رضى الله عنه فقد كان يوصى عماله بأهل الذمة « لا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفاً ولا رزقاً ، ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً فى درهم ولا تقمه على رجله فى طلب درهم فإنما أردنا أن نأخذ منهم العفو »[3] . هكذا كانت نظرة المجتمع الإسلامى إلى الأنفس والأموال والملل والأديان ، مجتمع حر وسع الناس من كل أمة وآواهم من كل ملّة آمنين مطمئنين ويتفق معنا فى هذا الرأى كثير من المستشرقين مثل فون كريمر ، وترتون ، ودوزى . يقول توماس أرنولد متحدثاً عن المسيحية فى ظل الحكم الإسلامى « تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية ، فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد . . ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح من هذه العهود التى أعطاها العرب لأهالى المدن التى استولوا عليها وتعهدوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم فى مقابل الاذعان ودفع الجزية »[4] . ويقول لوبون : « الحق أن الأمم لم تعرف فاتحين مسالمين مثل العرب ولا ديناً سمحاً كدينهم »[5] .

(1) عبد الكريم زيدان : أحكام الذميين والمستأمنين ص ١١٠ .
(2) الطبرى : جـ ٥ ص ٤٥ .
(3) أبو يوسف : الخراج ص ٥٢ .
(4) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٧٤ .
(5) لوبون : حضارة العرب ص ٧٢ .

الفصل السادس

ملامح العسكرية الإسلامية

حققت العسكرية الإسلامية نجاحا عظيما إذ حققت أهدافها الاستراتيجية من حيث تأمين الدعوة ، والدفاع عن الدولة الإسلامية وتوفير الأمن لها والاستقرار حتى تؤدى رسالتها . كانت هناك غزوات ، وكانت هناك سرايا . قاد الرسول ﷺ بنفسه ثمان وعشرين غزوة . واجه المسلمون أعداءهم جميعا المشركين اليهود ، الروم والفرس وانتصر المسلمون عليهم جميعا . واستمرت انتصاراتهم سواء فى حياة النبى ﷺ أو بعد لحاقه بالرفيق الأعلى ، فى عهد الخلفاء الراشدين .

ولقد كانت ولا تزال حركة الفتوحات الإسلامية والسرعة الفائقة التى تمت بها هذه الحركة ، والنجاح الذى حققته[1] ، كل ذلك كان من الموضوعات التى شغلت مؤرخى العالم واحتلت جزءا كبيرا من كتاباتهم فى القديم والحديث . فلم يكد ينصرم القرن الأول الهجرى حتى كان الإسلام قد امتد من المحيط الهندى إلى المحيط الأطلسى .

معنى ذلك أن العسكرية الإسلامية الناشئة بقيادة محمد ﷺ قد حققت تفوقا كبيرا على أقوى قوتين فى العالم آنذاك ، العسكرية الفارسية والعسكرية البيزنطية بتاريخهما الحضارى الحافل . وصارت العسكرية الإسلامية من مظاهر الحضارة الإسلامية .

كيف نجحت العسكرية الإسلامية الناشئة فى تحقيق ذلك النجاح الباهر ؟ ما هو السر فى انتصاراتها المتتالية ؟ كيف حققت كل تلك الانجازات الضخمة ؟

---

(١) راجع البلاذرى : فتوح البلدان محمود شيت خطاب : قادة الفتح .

الواقع أن العسكرية الإسلامية تتميز بخصائص ومميزات وملامح هى السر فى انتصارات المسلمين المتتالية حين تمسكوا بها ، ولما تخلوا عنها وغابت عنهم ، غاب عنهم النصر . والحق أن مبادىء العسكرية الإسلامية إنما استخلصها النبى ﷺ واستمدها من القرآن الكريم ، فإذا كانت الاستراتيجيات الشرقية والغربية فى العالم تقررها وترسمها قيادات بشرية فهى إذن من صنع البشر فى حين أن الاستراتيجية الإسلامية نجدها قد جاءت علوية سماوية إلهية . وليست بشرية من صنع إنسان قد يخطىء وقد يصيب . الاستراتيجية الإسلامية إنما أخذها المسلمون من كتاب «

﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (1)

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝ ﴾ (2) .

وأهم ملامح العسكرية الإسلامية هى :

١ ـ الإنسان المقاتل وأهميته :

الإسلام يعلى قيمة الإنسان وينظر إليه نظرة التكريم والاحترام وكل ما وضع من أحكام إنما جاء ليصون كرامة الإنسان وحقوقه فى الحياة . فالعدل والرحمة والمساواة هى للجميع . عمل الإسلام على تربية الإنسان على الانضباط الذاتى على أساس من الحرية والكرامة قال تعالى :

---

(١) سورة هود آية ١ .

(٢) سورة فصلت آية ٤٢ .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى :

○ ـــــــــ ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (٢)

الإسلام يربى ضمير المسلم ويوقظه ويجعله المتحكم فى ذاته إذ يقول ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » تربية الوازع الدينى تتضح فى قوله تعالى :

○ ـــــــ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ (٣)

ويقول فى موضع آخر :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (٤)

وقوله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٥)

---

(١) سورة الإسراء آية ٧٠ .
(٢) سورة الحجرات آية ١٣ .
(٣) سورة النازعات آية ٤٠ .
(٤) سورة الرحمن آية ٤٦ .
(٥) سورة الملك : آية ١٢ .

هذه هى شخصية المقاتل المسلم . والإسلام حين يهتم بالإنسان أو بالمقاتل فهو يدرك أهمية المقاتل فى المعركة . وكل العسكريات العالمية الآن تدرك أهمية الإنسان فى الميدان فهو العنصر الحاسم فى بناء الكفاءة القتالية ومدى قدرتها وفعاليتها العسكرية . ومن المعروف أن العبرة ليست بالسلاح إنما هى بالرجال الذين يحملون السلاح ويتحركون فى الميدان .

٢ ـ نفسية المقاتل وعقيدته القتالية :

المسلم يقاتل فقط للجهاد . . لتكون كلمة الله هى العليا ، لأهداف غاية فى السمو والنبل والشرف قال تعالى :

○ ـــــــــ ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ ﴾ (١)

والمقاتل فى المعركة إنما يجود بنفسه وبدمه وبروحه وتلك لا يبذلها الإنسان إلا أن يكون لأثمن وأغلى منها . . الخوف من الموت وحب البقاء قد تدفع المقاتل وتحركه . ولكن المسلم المؤمن الذى أسلم وجهه لله وتملأ نفسه عقيدة التوحيد الذى يشهد أن لا إله إلا الله لا قولاً بلسانه فقط ، إنما يعيشها ويتمثلها معنى حقيقيا ، كل ذرة فى كيانه تدركها وإذا أدرك الإنسان بعمق أن لا إله إلا الله ، لا يتعلق إلا بالله ولا يخشى غيره ولا يرجو سواه ، مما يعطى الإنسان قوة هائلة تجعله أكبر من أى موقف ، فتحرر شخصيته من كل خوف حتى الخوف من الموت لأنه يؤمن بعمق أن :

○ ـــــــــ ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ ﴾ (١)

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥ .　　(٢) سورة الحج آية ٧٨ .

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ (٢)

وقوله تعالى :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (٣)

وهكذا علمهم القرآن أن الحرص على الحياة لن يمد فى عمر الإنسان ، فيزداد قوة ولا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا ، لأنه مؤمن بقول الله عن الحياة والموت وعن الأجل المحدد وهكذا كان المسلمون فى فتوحهم ، ما عرفت نفوسهم الخوف مهما كانت المواقف ، وهذه هى شخصية المقاتل التى يريدها الإسلام .

ثم إن المنهج الإسلامى فى التربية يرى فى الشهادة شرفا عظيما وكسبا كبيرا ودرجة رفيعة فكان المسلم المجاهد يخرج للجهاد وهو يتطلع إلى إحدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة . ومقاتل هذه نفسيته وهذه روحه وهذه شخصيته لا يمكن أن يهزم أويغلب أبدا . كتلة هائلة من الإيمان والعقيدة تتحرك وتدفعه يستبسل ويستمر يقاتل فإما النصر أوالشهادة .

(١) سورة آل عمران ١٤٥ .
(٢) سورة الأعراف آية ٣٤ .
(٣) سورة النساء آية ٧٨ .

أوضح القرآن الكريم العوامل التى تؤدى إلى النصر فى المعارك وهى أوامر محددة واضحة . هناك منهج تطبيقى شرعه الله فى القتال ويجب على المجاهدين الالتزام به وبشروطه التى أمر الله بها فى كتابه الكريم وأهم تلك الشروط والأوامر هى :

١ - وحدة الغاية والهدف عند المجاهدين :

أن تكون غاية المجاهدين واحدة واضحة ابتغاء وجه الله تعالى بالعمل على نشر دينه وإعلاء كلمته تمكينا لمنهجه الذى ارتضاه ودليل هذا الشرط قوله تعالى :

○ ——————— ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

وقوله تعالى :

○ ——————— ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٢)

(١) سورة التوبة آية ٤١ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد الأول ص ٥٣٦ .
(٢) سورة الأنفال آية ٣٩ . الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٣٧ .

وفى الآيتين الكريمتين الغاية واحدة واضحة فى الآية الأولى أن يكون الجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله وحده . وفى الآية الثانية نفس الغاية ألا تكون فتنة فى الأرض للمؤمنين ، بحيث يصير الدين كله لله تعالى . قال تعالى :

○ ــــــــــــــــ ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (١)

والغاية هنا واضحة محددة هى إرهاب أعداء الله .

٢ ـ تماسك الجبهة الداخلية ووحدة الصف واجتماع الكلمة :

أمر الله تعالى المقاتلين أن يوحدوا صفهم بمعنى أن يكونوا يدا واحدة وفكرا واحدا خلف قيادتهم ينفذون أوامرها وتعليماتها . فالاتحاد قوة والتفرق ضعف . أن يكون هناك تكتيك عسكرى واحد واستراتيجية واحدة ينفذها الجميع أو خطة واحد لكل فيها دوره . ودليل هذا الشرط قوله تعالى :

○ ــــــــــــــــ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ (٢)

أى تكون جبهة المجاهدين متآلفة متفقة متحدة كبناء قد رص بعضه ببعض ألصق وأحكم حتى صار شيئا واحدا .

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠ .

(٢) سورة الصف آية ٤ . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد الثالث ص ٣٧١ .

أما انقسام جبهة المقاتلين أو عدم التقائهم على هدف واحد فذلك مما يؤدى إلى الهزيمة . وعلى القائد أن يتفقد جيشه ويستعرضه ليخرج منه من كان فيه تخذيل للمجاهدين وإرجاف للمسلمين ، فقد رد الرسول ﷺ عبد الله بن أبي بن سلول فى بعض غزواته لتخذيله المسلمين(١) .

٣ - اليقين بأن النصر بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء ، مرده إلى الله لا إلى القوة والعدد :

فبعد أن يبذل المجاهدون ما يمكنهم من جهد . وبعد الأخذ بالوسيلة والأسباب يعتمدون على الله فى تحقيق النصر ولا يأخذهم الغرور بالنفس إنما يوقنون أن النصر دائما بتوفيق من الله تعالى وتأييد منه . بتلك الروح حارب المسلمون فى بدر من هم أكثر منهم عددا وعدة وأحرزوا عليهم نصرا مؤزرا . وبالعكس فى موقعة حنين كان المسلمون كثرة عددية ورغم ذلك لم يحالفهم ذلك النصر المؤزر . ودليل هذا الشرط قوله تعالى :

○ ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾(٢)

وقوله تعالى :

○ ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٣٧ .

(٢) سورة الأنفال آية ١٠ .

شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ (١)

لا يغتر الجيش بقوته ويستهين بالعدو . ثم لا يخشى العدو فتنخفض معنويات المجاهدين مما يؤدى إلى الهزيمة . إنما يدركون أن النصر بيد الله يؤيد به أصحاب الحقوق . قال تعالى :

○ ——— ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (٢)

وعد صادق مؤكد بنصرة الله لمن يجاهد فى سبيله . قال تعالى :

○ ——— ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ (٣)

وفى موضع آخر يقول تعالى :

○ ——— ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤)

تلك الآيات تؤكد عون الله ووعده بالنصر لمن قاتل فى سبيل الله . فالمؤمن يثق يقينا بأن النصر بيد الله وحده يؤيد به من يشاء .

فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها ، ولكنه لا يجعل الأسباب هى التى تحدث النتائج

---

(١) سورة التوبة آية ٢٥ .
(٢) سورة محمد آية ٧ .
(٣) سورة الحج آية ٤٠ .
(٤) سورة الروم آية ٤٧ .

بالضرورة فيتكل عليها وحدها . إن الذى ينشىء النتائج هو الذى ينشىء الأسباب هو الله تعالى ولا علاقة بين السبب والنتيجة فى وجدان المؤمن وشعوره . . المؤمن يتخذ الأسباب عبادة بالطاعة ، وتحقيق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله وحده وبذلك يتحرر شعور المؤمن المجاهد من التعبد للأسباب والتعلق بها ، وفى الوقت نفسه هو مستوف لها بكل طاقته[1] . وأكد ابن كثير هذا المعنى فى تفسيره لقوله تعالى :

○ ـــــ ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

سورة البقرة آية ٢٤٩ .

فى غزوة مؤتة عام ٨ هـ كان عدد المسلمين ثلاثة آلاف بينما كان عدد الروم مائة ألف[2] بقيادة هرقل عدا مائة ألف من المستعربة . وقف عبد الله بن رواحة قائد المسلمين قائلا للجند والله ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فإما النصر أو الشهادة[3] .

ومما يؤكد ذلك ما قاله حاكم رومانى ، حين أرسل إليه الامبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد المسلمين ، فرد عليه الحاكم المسيحى قائلا : « إنهم أقل منا عددا ولكن عربيا واحدا يعادل مائة من رجالنا . ذلك أنهم لا يطمعون فى شىء من لذات الدنيا ويكتفون

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ٣ ص ١٤٧٦ . ابن كثير : تفسير القرآن جـ١ ص ٣٠٢ .

(٢) ابن هشام : السيرة جـ٣ ص ٤٢٩ . ابن الأثير : أسد الغابة المجلد ٣ ص ١٥٨ .

(٣) ابن هشام . السيرة جـ٣ ص ٤٣٠ .

بالكساء البسيط والغذاء البسيط ، هذا فى الوقت الذى يرغبون فى الاستشهاد لأنه أفضل طريق يوصلهم إلى الجنة ، فى حين نتعلق نحن بأهداب الحياة ونخشى الموت يا سيدى الامبراطور»[١] .

٤ ـ الثبات والصبر وعدم الفرار أثناء القتال مع ذكر الله[٢] :

الفارق بين المنتصر والمهزوم دائما هو مدى الصمود والقدرة عليه والاستمرار فيه . وذكر الله تعالى يعطى المجاهدين قدرة على العمل ودليل ذلك قوله تعالى :

○ ـــــــــــ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[٣]

أمر صريح بوجوب الثبات عند لقاء العدو ، مع ذكر الله فالثبات أول طريق النصر . وأثبت الفريقين أغلبهما . وذكر الله عند لقاء العدو إنما هو اتصال بالقوة الغالبة .

وقوله تعالى :

○ ـــــــــــ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى جـ ١ ص ١٢٠ .
(٢) محمد رواس قلعة جى : موسوعة فقه عثمان ص ١٣١
(٣) سورة الأنفال آية ٤٥ .

بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

توضح الآية الكريمة شدة فى التحذير وتغليظ فى العقوبة ، وتهديد بغضب من الله ومأوى فى النار لمن لا يثبت أثناء القتال أو يفر من المعركة . وقد اعتبر التولى يوم الزحف من السبع الموبقات ، كما روى البخارى ومسلم فى الصحيحين(٢) .

قال الإمام الشافعى « إنما يوجب الله سخطه على من ترك فرضا ، وفرض الله عز وجل فى الجهاد إنما هو على أن يجاهد المسلمون ضعفهم من العدو »(٣) وعلى ذلك يمكننا القول أن الحكم فى التشريع(٤) الإسلامى العسكرى هو أنه لا يجوز للجيش المسلم أن يفر من العدو أثناء المعركة إذا كان عدد المسلمين نصف عدد جيش الأعداء ، أى أنه إذا كانت النسبة بين جيش المسلمين وجيش أعدائهم واحد إلى اثنين فلا يجوز الفرار من المعركة ، أو تولية الأدبار قال تعالى :

○ ـــــــــــ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ ﴾ (٥)

---

(١) سورة الأنفال آية ١٥ ـ ١٦ . ابن العربى : أحكام القرآن المجلد الثانى ص ٨٤٣ وما بعدها .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات ، وقيل ما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله . السحر . قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق . أكل الربا . أكل مال اليتيم . قذف المحصنات الغافلات المؤمنات والفرار يوم الزحف » .

(٣) الأم جـ ٤ ص ٩١ .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٤٤ . (٥) سورة الأنفال آية ٦٥ .

ثم قال تعالى :

○ ———— ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (١)

وعلى ذلك حرام على كل مسلم ان ينهزم عن مثليه الا لاحدى حالتين(٢) .

أما أن يتحرف لقتال فيولى لاستراحة أو لمكيدة ثم يعود لقتالهم وإما أن يتحيز إلى فئة أخرى يجتمع معها على قتالهم .

٥ ـ الاستبسال وشدة البأس فى القتال :

إن الاستبسال وشدة البأس فى القتال تثير الرعب فى قلوب الأعداء مما يهبط بمعنوياتهم وتلك أولى خطوات الهزيمة وبواعثها وتؤدى بعد ذلك إلى انهيار مقاومة الأعداء فيكون التسليم . ودليل هذا الشرط قول الله تعالى :

○ ———— ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (٣)

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٥ .

(٣) سورة الأنفال آية ٥٧ .

إنه لتعبير عجيب ، يرسم صورة للأخذ المفزع ، والهول المرعب الذى يكفى السماع به للهرب والشرود فما بال من يحل به هذا العذاب الرهيب ؟ إن هذا الدين لابد له من هيبة ، لابد له من قوة ، لابد له من سطوة تبعث الرعب الذى يزلزل أعداء تلك العقيدة فلا يقف فى وجه المد الإسلامى من يعوقه[1] . فالقرآن يحث المجاهد على شدة القتال وشدة البأس بقوة لا ترهب الأعداء وحدهم إنما ترهب من يسمع بهم من ورائهم من أمثالهم : فلا يجرؤ على الوقوف فى وجه الإسلام أحد .

يقول الله تعالى :

○ ——— ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ [2]

هو أمر ملزم بإيقاع البأس الشديد فى العدو المقاتل . حتى يقع الرعب والفزع فى قلوب من خلفهم ذعرا أن يقع بهم مثل هذا البلاء العظيم . وقال تعالى :

○ ——— ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [3]

فعلى المجاهدين إرهاب الأعداء .

٦ ـ عدم التنازع وطاعة القائد[4] :

إن الجيش الذى يطيع القائد طاعة عمياء وينفذ تعليمات القيادة

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ٣ ص١٥٤٢ .

(٢) سورة الأنفال آية ٥٧ . (٣) سورة الأنفال آية ٦٠ .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٣٧ . صحيح البخارى جـ٦ ص١٦٣ .

يهيىء لنفسه أسباب النصر . ولم ينتصر جيش فى التاريخ تنازع ودب بين صفوفه اختلاف وجهات النظر . ان التنازع فى الأمر واختلاف وجهات النظر من شأنه تبديد الطاقات فى اتجاهات مختلفة ويعرقل تحقيق النصر ويؤدى إلى الفشل . ودليل هذا الشرط قوله تعالى :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [1]

○ ـــــــــــ ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [2]

أما طاعة الله ورسوله فمن شأنها أن يدخل المجاهدون المعركة مستسلمين لله فتبطل أسباب النزاع . هذا التعليم والأمر بطاعة الله ورسوله عند المعركة إنما هو من ضرورات الضبط التى لابد منها لتحقيق النصر ، إنها طاعة القيادة العليا التى تنبثق منها طاعة الأمير الذى يقودها وهى طاعة قلبية عميقة تختلف عن الطاعة التنظيمية فى الجيوش التى لا تقاتل فى سبيل الله . فالمجاهدون فى سبيل الله يستمدون ولائهم للقيادة من ولائهم لله تعالى أولا .

ثم يتبع ذلك أمر واضح صريح بعدم التنازع لأنه يؤدى إلى الفشل . قال تعالى : مشيرا إلى ماحدث فى غزوة أحد[3] :

○ ـــــــــــ ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ

---

(1) « تذهب ريحكم » تذهب قوتكم وبأسكم . الصابونى : صفوة التفاسير المجلد ١ ص ٥٠٨ .

(2) سورة الأنفال آية ٤٦ .

(3) الواجدى : أسباب النزول ص ٧٢ .

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ (١)

هذه الآية الشريفة تؤكد على ضرورة الطاعة وعدم التنازع موضحة ما يترتب على هذا التنازع من فشل وهزيمة .

كان النصر الساحق للمسلمين فى أوائل معركة أحد ، واستمر القتل فى المشركين حتى ولوا الأدبار تاركين من خلفهم الغنائم . وحين ضعفت نفوس الرماة أمام إغراء الغنائم وتنازعوا فيما بينهم فريق يريد الغنائم ، وفريق يرى الطاعة المطلقة لأمر رسول الله ﷺ قائد المعركة ، وانتهى الأمر إلى العصيان بعد ما رأوا بأعينهم طلائع النصر الذى يجبونه ترتب على هذا التنازع فى الأمر وعلى عدم الطاعة أن انقلب نصر المسلمين إلى هزيمة لما ضعفوا وتنازعوا وعصوا صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين وصرف المقاتلين عن الميدان فلاذوا بالفرار(٢) .

وقال تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ (٣)

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٥٢ .

(٢) ابن حجر : فتح البارى المجلد ٦ ص ١٦٢ . سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ ١ ص ٤٩٤ .

(٣) سورة النساء آية ٥٩ .

وعن ابن عباس أن المقصود بأولى الأمر هنا « الأمراء » ومنهم أمير الجيش[1] . قال رسول الله ﷺ : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى . ومن عصانى فقد عصا الله ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » . وذكر الماوردى أنه يلزم الجند طاعة أميرهم ، وأن يفوضوا الأمر إليه ويكلوه إلى تدبيره حتى لا تختلف آراؤهم فتتلف كلمتهم ويفترق جمعهم[2] .

٧ ـ ومن دواعى الاستبسال وشدة البأس فى القتال تنقية صفوف المقاتلين . فالقائد المسلم عليه استعراض قواته يخرج من بينها من يكون عائقا لها أو مضعفا أو مخذلا وفى ذلك يقول الماوردى « أن يتصفح الجيش ومن فيه ليخرج منهم من كان فيه تخذيل للمجاهدين وأرجاف للمسلمين أو عينا عليهم للمشركين ، فقد رد رسول الله ﷺ عبد الله بن أبى بن سلول فى بعض غزواته لتخذيله المسلمين[3] » .

ومن ناحية أخرى فقد أخرج النبى من الجيش شبابا شعر ﷺ أنهم لن يجيدوا القتال ولن يتحملوا ضراوته لصغر سنهم . ومن ذلك وجب على القائد المسلم استعراض جيشه للتأكد أن كل فرد فيه قادر على ذلك العمل الذى يناط به[4] .

فقد أجاز الرسول ﷺ بعض الغلمان . وأخر آخرين حتى

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٤٨ . ابن كثير التفسير جـ ١ ص ٥١٦ .
(٢) المصدرين السابقين .
(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٣٧ .
(٤) الكتانى : الترتيب الادارية جـ ١ ص ٢٣١ .

أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم وعلى ذلك فالرسول كان يتخير المقاتل .

كما أنه ﷺ رد بعض المتطوعين لعدم اكتمال الجو المناسب لاشتراكهم فى القتال رغم قدرتهم عليه لظروفهم الأسرية . وذلك لاحتياج آبائهم وأهلهم لوجودهم بجانبهم أمر أحدهم أن يلزم أمه(١) كما أمر آخر أن يذهب مع زوجته للحج قبل أن يجاهد(٢) ، هكذا كان النبى ﷺ يحرص على أن يكون خروج الرجال خالصا لوجه الله تماما قادرين عليه لا يشغلهم عنه شىء . ومن الجدير بالذكر أنه لا يجوز الاستعانة بمن كان مشركا لقوله ﷺ : « إنا لا نستعين بالمشركين »(٣) .

تلك هى التعاليم والأوامر التى وجهها القرآن الكريم ليلتزم بها المجاهدون بعد إعداد القوة الكافية ، فإذا التزموا بتلك الشروط أثناء القتال وكانت غاياتهم وأهدافهم واضحة يمكنهم تحقيق النصر على أعدائهم ولقد أثبتت الغزوات ومن بعدها معارك الفتح الإسلامى مدى صدق هذه التعاليم حيث أثمر الجهاد الصادق فتحا مبينا وانتشارا للإسلام . وما من جيش اتبع تلك التعاليم والتزم بتلك الأوامر إلا حقق النصر ذلك أن قوة المجاهدين فى سبيل الله تزداد بقدر ما فى قلوبهم من إيمان وعقيدة تدفع للصبر حتى يصير الفرد

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢١ .

(٢) ابن حجر : فتح البارى مجلد ٦ ص ١٤٠ .

(٣) صحيح مسلم المجلد السادس ص ١٩٨ وما بعدها . باب الجهاد الشوكانى : نيل الأوطار جـ ٤ ص ٣٥ . ابن القيم : أحكام أهل الذمة جـ ١ ص ٢٠٨ .

الواحد منهم كفؤا لاثنين من أعدائه على الأقل ، وكفؤا لعشرة من العدو على الأكثر كما ذكر القرآن : قال تعالى :

○ ـــــــ ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن
يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ
ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ
وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (١)

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٥ - ٦٦ .

الفصل السابع

توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الحرب

هناك محظورات لا يبيحها الإسلام أثناء الحرب وقد وضحها النبى ﷺ وكلها توضح فلسفة الحرب فى الإسلام وتؤكد ميله إلى السلم. نتناولها فيما يلى وكلها مستمدة من الكتاب والسنة. قال تعالى:

○ ــــــــــــــــ ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ (١)

كان رسول الله ﷺ إذا أقر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال: اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا(٢) وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن لهم بالله وقاتهلم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذلك، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة

---

(١) سورة المائدة آية ٢ .

(٢) أبى عبيد القاسم بن سلام : الأموال ص ٣٢ - ٣٣ . السيوطى : تنوير الحوالك جـ ٢ ص ٧ .

أصحابك . . (فكان النبى ﷺ ينهى عن قتل الأولاد والتمثيل بالمقتولين) أى اجعل عهدك وعهد أصحابك حتى تكونوا مسئولين عن عهدكم . .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى كان يقول لأمير السرية : إذا نزلت بساحتهم فادعهم إلى الإسلام وأخبرهم ما يجب عليهم ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم[١] .

كما قال ﷺ كلما بعث بعثا أو سرية : « تألفوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل بيت إلا أن تأتونى بهم مسلمين أحب إلى من أن تأتونى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم »[٢] هذا الحديث يوضح وجهة النظر الإسلامية فى الحرب ، فرسول الله ﷺ يؤثر اعتناق القوم للإسلام ، ويوصى بدعوتهم إلى الله والتأنى معهم قبل إعلان الحرب عليهم .

وقد نهى النبى ﷺ عن قتل النساء فى الحرب ونهى عن قتل الصبيان[٣] وقال هما لمن غلب . وقد أجاز بعض الفقهاء قتل المرأة إذا قاتلت[٤] أى أنه لا يجوز قتل النساء إلا أن يكن محاربات[٥] . ويقول ابن حزم : ولا يحل قتل النساء الكفار ولا قتل من لم يبلغ منهم إلا أن يقاتل أحد منهم فلا يكون للمسلم منجى منه إلا بقتله .

---

(١) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى جـ ٦ ص ١٤٤ .

(٢) صبحى الصالح : النظم الإسلامية ص ٥١٤ نقلا عن شرح السير الكبير .

(٣) ابن حجر فتح البارى ، جـ ٣ ص ١٤٨ وما بعدها . صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١١ ص ٤٨ .

(٤) المصدر السابق

(٥) السيوطى : تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك جـ ٢ ص ٥ . رؤوف شلبى : الدعوه الإسلامية فى عهدها المدنى ص ٤٤١ .

فإذا كانت الحرب ضرورة وأمراً لابد منه فيجب على المحارب المسلم ألا يسفك دما لا ضرورة لسفكه ولا يتلف مالا دون مبرر ، ويحرم تحريما قاطعا إحراق الأعداء أو إغراقهم أو التمثيل بجثثهم كما يحرم قتل الوالدين إذا كانا غير مسلمين ومقاتلين فى جيوش الأعداء .

وقد اتفق الفقهاء على أن المدنيين الذين لا يقاتلون يحرم قتلهم أو التعرض لهم بأى نوع من الأذى كالنساء والأطفال والرهبان والشيوخ كبار السن ، والمرضى[1] ووجدت امرأة مقتولة فى بعض غزوات النبى ﷺ فأنكر قتل النساء ، وكان على المقدمة خالد بن الوليد فأرسل له فقال[2] : « قل لخالد لا يقتلن امرأة ولا عسيفا »[3] وفى ذلك يقول الماوردى[4] « ولا يجوز قتل النساء والولدان فى حرب ولا فى غيرها ما لم يقاتلوا لنهى رسول الله ﷺ عن قتلهم . ونهى رسول الله ﷺ عن قتل العسفاء والوصفاء والعسفاء : المستخدمون والوصفاء : المماليك فإن قاتل النساء والولدان قوتلوا وقتلوا مقبلين ولا يقتلوا مدبرين » .

وعن النبى ﷺ أنه قال : انهوا جيوشكم عن الفساد فإنه ما فسد جيش قط إلا قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وانهوا جيوشكم عن الغلول فإنه ما غل جيش قط إلا سلط الله عليهم الرجلة ، وانهوا

---

(١) الجصاص : أحكام القرآن جـ١ ص ٢٥٧ . الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٤ .
النواوى : العلاقات الدولية ص ٨٨ .

(٢) صبحى الصالح : النظم الإسلامية .

(٣) العسيف : الأجير .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٤١ .

جيوشكم عن الزنا فإنه ما زنا جيش قط إلا سلط الله عليهم الموتان[1] .

وكان ﷺ لا يغير على قوم بليل ولا يغير عليهم إلا بعد الصبح[2] وكان إذا طرق قوما فإن سمع أذانا أمسك . ونهى النبى عن التمثيل بالموتى[3] .

ونهى النبى ﷺ عن الغدر . فالغدر[4] مرفوض فى السلام ومكروه كذلك فى الحرب فهو بغيض كل البغض للمقاتل المسلم ، لأنه يقاتل فى الله لغرض من أسمى الأغراض . المقاتل المسلم وفى لدينه ولربه ولا يمكن أن يكون غادرا ، قال تعالى :

○ ——— ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[5]

وقال تعالى :

○ ——— ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾[6]

وقال رسول الله ﷺ « لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدرغدره ، ألا ولا غادرا أعظم غدرا من أمير العامة » هكذا ينهى

---

(١) المصدر السابق : ذكره مالك فى الموطأ مع تغيير فى اللفظ . جـ ٢ ص ١٦

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٣٧٢ .

(٣) ابن هشام : السيرة جـ ٢ ص ٢٩٣ .

(٤) رؤوف شلبى : الدعوة الإسلامية فى عهدها المدنى ص ٤٤٧ .

(٥) سورة الأنفال آية ٥٨ .

(٦) سورة النحل آية ٩١ .

النبى ﷺ عن الغدر كما كان يحث على الوفاء[1] فقد قال عليه السلام : « ألا أخبركم بخياركم ؟ خياركم الموفون بعهودهم » . وقال « أنا أحق من وفى بعهده » ومصادر التاريخ تؤكد هذه الحقيقة فقد التزم النبى والخلفاء بالوفاء بكل التزام ووفوا بعهدهم ، وكل مجاهد حق إنما يلتزم بالوفاء ويتجنب الخيانة .

وكذلك منع الإسلام قتل الرهبان فى صوامعهم فهم مشغولون بعبادة الله تعالى ولم يشتركوا فى الحرب . فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال : « اخرجوا باسم الله تعالى ، تقاتلون فى سبيل الله من كفر بالله ولا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع »[2] .

ففى هذا الحديث تحذير صريح واضح عن عدم قتل الرهبان والمتعبدين فى صوامعهم كما جاء فيه أيضا تحذير عن الغلول وأوضح تحريم ذلك والغلول هو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها . ذلك أن المقاتل فى سبيل الله أو المجاهد إنما هو فى سبيل الله ، خالصا لوجه الله وليس لأى غرض دنيوى وعلى ذلك لا ينظر لعرض دنيوى أو مادى . وقد أورد مسلم فى صحيحه فصلا خاصا فى « غلظ تحريم الغلول » وذلك فى كتاب الامارة[3] .

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووى المجلد جـ ١١ ص ١٤٤ .

(2) راجع نيل الأوطار جـ ٢ ص ٢٦٠ وما بعدها السيوطى : تنوير لحوالك شرح موطأ مالك . جـ ٢ ص ٧ .

(3) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١١ ص ٢١٦ . وما بعدها .

فى أول خلافة أبى بكر رضى الله عنه خرج ليشيع بعث أسامة الذى كان النبى ﷺ قد أعده قبيل وفاته قال خليفة رسول الله وأكثر أصحابه قربا منه وفهما له قال أبو بكر الصديق فى توجيهه للجيش : « يا أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولاتقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له »(٢) .

تلك هى وصية أبى بكر الخليفة الأول لرسول الله ﷺ والمتفهم تماما لتعاليم الإسلام وآراء النبى واتجاهاته . إن تلك الوصية إنما هى تعبير صادق ، واضح عن المحظورات التى يمنع الإسلام إتيانها أثناء القتال فالحرب فى نظر الإسلام إصلاح وليست إتلافا وإفسادا .

إن تلك الوصايا التى اقتبسها الصديق رضى الله عنه من هدى الإسلام وتعاليمه يمكننا من بين ثناياها أن نعرف ما يحل فى القتال ومالا يحل . فإذا كان الباعث على القتال رد الاعتداء وتأمين الدعوة ومنع فتنة المؤمنين فنجد هذا الباعث يحكم الحرب ، فنجده يمنع بل يحرم قتل من لم يشترك فى الحرب بأى صورة من صور الاشتراك ، لذلك جعل الحرب قاصرة على الميدان لا تتعداه إلى غيره . كما نجده يمنع ويحرم الاعتداء على الحرية الدينية . فقد نهى أبو بكر عن قتل رجال الدين أو الرهبان أو التدخل فى حريتهم ذلك

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٣ ص ٢٢٦ وما بعدها . (وعقر النخل قطع رأسها) .

أن الجيش كان متجها إلى الشام حيث الأرض المقدسة لدى الأديان السماوية الثلاث الإسلام والنصرانية واليهودية وحيث تنتشر الصوامع والمعابد والكنائس حيث تفرغ للعبادة فيها رجال ، لذلك نبه جيشه بعدم التعرض لهؤلاء فهم لا يقاتلون ولا يفتنون الناس عن الإسلام إذا أغلقوا أبوابهم عليهم .

كما نلاحظ وصايا الصديق بمنع التخريب ، فتلك روح الإسلام نهى عن قطع الشجر بأنواعه والنخيل ، فالإسلام يبنى ولا يهدم يعمر ولا يخرب . لا يسمح الإسلام بهدم أو تخريب الا أن تكون ضرورة حربية قصوى كأن يستتر الأعداء بهذا البناء أو بهذا الشجر ويتخذوه كمينا وحصنا فاذا تبين واتضح أن قطع الشجر أو هدم البناء ضرورة حربية لازمة ولا مناص منها . بأن كان فى بقاء ذلك الشجر أو ذلك الحصن ايذاء ونيل من الجيش الإسلامى ، هنا فقط يحل للجيش قطع ذلك الشجر أو هدم ذلك الحصن أما فيما عدا ذلك فلا يجوز تخريب أو تدمير، فليست الشعوب هى المقصودة بالحرب إنما هم الحكام الذين يعادون الدعوة أو يفتنون المسلمين . فالأصل[1] هو عدم قطع الشجر أو هدم البناء . لأن الغرض من الحرب دفع أذى الحاكم الظالم لا ايذاء الرعية .

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح : أنه بلغنى أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيشا أو سرية قال : اغزوا باسم الله وفى سبيل الله تقاتلون من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا . فاذا بعثت جيشا أو سرية فمرهم بذلك[2] .

---

(١) الإمام محمد أبو زهرة : العلاقات الدولية فى الإسلام ص ١٠١ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ١٢٨ .

وكان عمر بن الخطاب يقول عند عقد الألوية : بسم الله وبالله وعلى عون الله . أمضوا بتأييد الله والنصر لزوم الحق والصبر ، فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمه النهضات ، وفى شن الغارات ولا تغلوا عند الغنائم . ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا وأبشروا بالرباح فى البيع الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم(١) .

معاملة الأسير فى الإسلام :

لا شك أن موقف الإسلام من الآسير هو موقف المعالج الحانى العطوف قال تعالى :

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾(٢)

ذكر الواحدى عن ابن عباس أن تلك الآية نزلت فى على بن أبى طالب ، أنه أجر نفسه يسقى نخلا نظير شىء من شعير ليلة حتى أصبح وتسلم الشعير فطحن ثلثه وأهل بيته وجعلوا منه طعاما فلما تم

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار المجلد الأول كتاب الحرب ص ١٠٧ وما بعدها .
ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ ١ ص ١٢٨ . وما بعدها .

(٢) سورة الإنسان آية ٨ . مدنية .

(٣) الواحدى أسباب النزول ص ٢٥١ .

نضجه أتى اليهم مسكين فقدموا له هذا الطعام ثم عملوا الثلث الثانى فلما أن تم نضجه حتى أتاهم يتيم يسألهم فقدموا له طعامهم . ثم عمل الثلث الباقى فلما تم نضجه أتى أسير من المشركين فأطعموه طعامهم وظلوا جياعا فى يومهم هذا .

فالقرآن الكريم يشيد بموقف على أن عاون الأسير وقدم له الطعام فنظرة القرآن للمسكين ولليتيم هى نفس النظرة للاسير . ينظر القرآن للأسير نظرة عطف وأشفاق ورحمة . أما على بن أبى طالب رضى الله عنه فان كان تصرف هكذا تجاه الأسير وأطعمه وقدم له يد العون انما ليقينه من موقف الإسلام تجاه الأسير : وقد سبقت الآية فى معرض الحديث عن شخصية الفرد المسلم التى رباها الإسلام فى المرحلة المكية ، باظهار الرحمة الفياضة من قلوب المؤمنين التى ذابت رقه وعطفا وحناناً على الضعفاء المحتاجين ومنهم الأسير فكأنما الأسير فى نظر الإسلام يساوى اليتيم ويساوى المسكين . حق عليه العطف والشفقه لا الثأر أو الانتقام .

وعن النبى ﷺ : « استوصوا بالأسارى خيرا »[١] رواه الطبرانى وقال حديث حسن وهذه الوصية على قصرها تجمع كل معانى الخير ، بما فيها المعاملة الطيبة . وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الاسارى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغذاء[٢] . وكان النبى يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول « أحسن اليه » .

---

(١) ابن هشام : السيرة جـ ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) ابن هشام السيرة جـ ٢ ص ٢٨٨ .

فى أحد بعوث المسلمين أسروا رجلا من بنى حنيفة هو ثمامه بن أثال سيد أهل اليمامة فربطوه بسارية من سوارى المسجد فخرج اليه الرسول ﷺ فقال : ماذا عندك يا ثمامة ؟ فرد قائلا عندى يا محمد خيرا أن تقتل تقتل ذا دم ، وان تنعم تنعم على شاكر ، وان كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فتركه ﷺ يومين ثم سأله نفس السؤال فأجابه ثمامة نفس الاجابة ، فأمر النبى ﷺ أن يفك ويطلق سراحه . فماذا حدث ؟ انطلق ثمامة إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد وشهد بشهادة الإسلام ثم توجه للرسول قائلا والله يا محمد ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، والآن أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى[١] .

لقد كانت المعاملة الحسنة سببا لدخول هذا الأسير فى الإسلام وتلك غاية ما يحرص عليه المسلم وغاية ما قامت من أجله الحرب . ضمن الإسلام للأسير حياة بعيدة عن غضب القلب أو الرغبة فى الثأر والانتقام . يمتنع الإسلام عن الحاق الأذى بالأسير .

والقائد المسلم له الخيار فى الأسرى الذين هم بالضرورة غير مسلمين والا لما جاز حربهم ، له الخيار امامنا واما فداء كما جاء فى القرآن الكريم « فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها »[٢] فمن المن[٣] ما فعله الرسول ﷺ بأهل مكة عند الفتح عام ٨ هـ فلم يتعرض ﷺ لأحد من أهلها فى نفس أو مال . بل كان مناديه ينادى[٤] ألا لا يجهزن على جريح ولا يتبعن مدبر ، ولا يقتلن

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١١ ص ٨٧ وما بعدها .

(٢) سورة آية .

(٣) المسن : أى المسن عليهم بتسريحهم .

(٤) ابن سلام : الأموال ص ١٤١ .

أسير ، ومن أغلق بابه فهو آمن » وبذلك أمن الرسول ﷺ الناس جميعا الا أربعة نفر لكل منهم حديث وأمر خاص[1] لهم تاريخ طويل جداً فى أذى الإسلام والمسلمين .

أتى الرسول ﷺ الكعبة وقال : ما تقولون وما تظنون ؟ فردوا عليه نقول ابن أخ حليم رحيم . فقال لهم الرسول ﷺ أقول لكم كما قال أخى يوسف « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »[2] وهكذا أمن الجميع وقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

أما الفداء[3] فهذا ما فعله النبى ﷺ مع الأسرى يوم بدر[4] فبعضهم دفع مبالغ من المال ، وبعضهم علم أبناء المسلمين الكتابة والخط ، كان على الواحد منهم أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة . أما عن المبالغ المدفوعة فى الفداء فقد بلغت أربعة آلاف درهم للرجل ، وأقلها درهم بحسب حالاتهم .[5] ومن الجدير بالذكر أن الرسول ﷺ من على من لا مال له من أسرى بدر .

نستنبط من تلك السنة الشريفة كراهية الإسلام قتل الأسير صبراً ويرفض الإساءة اليه ولو تتبعنا سنة النبى ﷺ لا نجد فيها اذن قط بقتل أسير إلا فى حالة شاذة نادرة[6] كان الأسير فيها شديد الخطورة والنكاية بالمسلمين فهو ليس قاعدة انما هو استثناء يطبق على الشاذين

---

(١) ابن سلام : الأموال ص ١٤٢ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى جـ ١ ص ٥٠٥ .

(٣) الفداء : أما نظير إطلاق سراح أسرى المسلمين أى تبادل أسرى . وإما بدفع مبلغ يتفق عليه .

(٤) ابن هشام : السيرة جـ ٢ ص ٢٩٢ وما بعدها . ص ٢٩٢ .

(٥) المصدر السابق ص ٣٠٦ .

(٦) ابن حجر : فتح البارى المجلد ٦ ص ١٦٥ .

الخطرين ، وهذا ما يعرف فى عصرنا الحالى باصطلاح « مجرمى الحرب » . كما لم يشجع الإسلام على استرقاق الأسرى . ولعل موقف الرسول ﷺ من سبى هوازن عقب موقعة حنين يؤكد ذلك[1] بل ان سياسة الإسلام كانت التخلص من الرق والقضاء عليه تدريجيا فنظم لهم المكاتبة والتدبير[2] وقد جاء تحرير الرقيق فى الإسلام وعتق الرقاب من أعظم الكفارات التى تمحو الذنوب . قال تعالى فى سورة البلد : « **فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة** » . وذلك مثل القتل الخطأ ، والافطار فى نهار رمضان ، أو الظهار ، أو اليمين التى يحلفها الإنسان حانثا فيها . كما شجع القرآن عتق الرقيق تقربا من الله وابتغاء مرضاته .

والواقع أن القاعدة العامة فى الأسر هى : اما منا بعد واما فداء . وقد قدم المن على الفداء .

تلك هى شئون الحرب والسلم حسب النظرية الإسلامية والواقع أنها تبعد عن الناس شبح الحرب ما استطاع الإسلام إلى ذلك سبيلا ، وتدعوهم إلى التعاون والتراحم والتآخى . تلك النظم التى قامت على أساس السمو بالمشاعر الإنسانية ذلك أن ايمان الفرد لا يتم الا إذا أحب الإنسان لأخيه الإنسان ما يحب لنفسه .

نهج الإسلام فى حروبه طريقا لم يكن معهودا من قبل فى أمة من الأمم ولا فى شريعة من الشرائع السابقة .

---

(١) نادية حسنى : الطائف فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام ١٠٣ ـ ١٠٥ .
(٢) صبحى الصالح : النظم الإسلامية ص ٤٧١ .

الإسلام هذب أمور الحرب ورفع مستوى الإنسانية ، وبث الرحمة والعدل فى قلوب متبعيه وأوضح لهم نظاماً للحروب لن تصل اليه تلك الأمم التى تدعى أنها وصلت إلى مستوى رفيع من الحضارة[١] .

(١) أبوزيد شلبى فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٥٥ .

المصَادرُ وَالمراجِعُ

أولا - المصادر الأصلية

القرآن الكريم

ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ) على بن أبى الكرم محمد
- الكامل فى التاريخ الطبعة الثالثة ١٩٨٠ دار الكتاب بيروت
- أسد الغابة فى معرفة الصحابة (المكتبة الإسلامية - القاهرة) .

البخـارى : (ت ٢٥٦ هـ) الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى
- الجامع الصحيح .

الجصـاص : (ت ٣٧٠ هـ) أبو بكر أحمد بن على الرازى .
- أحكام القرآن (طبعة دار الكتاب العربى - بيروت)

ابن حجر : (ت ٨٥٢ هـ) أحمد بن على

ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ) عبد الرحمن بن محمد .
- كتاب العبر (مؤسسة جمال - بيروت)

الدينـورى : (ت ٢٨٢ هـ) أحمد بن داود أبو حنيفة .
- الاخبار الطوال (تحقيق عبد المنعم عامر - وزارة الثقافة والارشاد القومى) .

الأزرقى : أبو الوليد محمد بن عبد الله .
- أخبار مكة (الطبعة الثانية ١٩٦٥ مكة المكرمة) .

السـيوطى : (ت ٩١١ هـ) جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر
- تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك (طبعة دار الفكر)
- الخصائص الكبرى (الطبعة الأولى - بيروت)

السمهودى : (ت ٩١١ هـ) نور الدين على بن أحمد .
- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) .

ابن سـعد : (ت ٢٣٠ هـ) محمد بن سعد .
- الطبقات الكبرى (طبعة بيروت) .

ابن سلام : (ت ٢٢٤ هـ) أبو عبيد القاسم .
- الأموال (تحقيق محمد خليل هراس الطبعة الثانية)

الشوكانى : (ت ١٢٥٥ هـ) الامام محمد بن على بن محمد .
- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار .

الشافعى : (ت ٢٠٤ هـ) الامام محمد بن ادريس .
- الأم .

أبو شامة : (ت ٦٦٥ هـ) شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن اسماعيل .
- الروضتين فى أخبار الدولتين .

الطبرى : (ت ٣١٠ هـ) محمد بن جرير .
- تاريخ الأمم والملوك (الطبعة الثانية تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) .

ابن عبد ربه : (ت ٣٢٧ هـ) أبو عمر أحمد بن محمد .
- العقد الفريد الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٦٥ .

ابن العربى : (ت ٥٤٣ هـ) أبو بكر محمد بن عبد الله .
- أحكام القرآن (طبعة دار المعرفة - بيروت) .

ابن العماد الحنبلى : (١٠٨٩) أبى الفلاح عبد الحى بن العماد .
- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (طبعة دار المسيرة - بيروت) .

عمر بن فهد : (ت ٨٨٥ هـ) محمد بن محمد .
- اتحاف الورى بأخبار أم القرى (١٩٨٣) .

ابن قتيبة : (ت ٢٧٦ هـ) أبو محمد عبد الله بن مسلم .
- المعارف (الطبعة الثانية - القاهرة) .
- عيون الأخبار (طبعة ١٩٢٥ - القاهرة) .

ابن القيم : (ت ٧٥١ هـ) الشيخ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر .
- أحكام أهل الذمة (تحقيق صبحى الصالح) .
- زاد المعاد .

ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ) عماد الدين أبى الفدا اسماعيل .
- تفسير القرآن العظيم .
- البداية والنهاية .

الكتانى : الشيخ عبد الحى .
- التراتيب الادارية (دار احياء التراث العربى - بيروت) .

مالك : (ت ١٧٩ هـ) الامام أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحى .
- الموطأ .

المقريزى : (ت ٨٤٥ هـ) تقى الدين أحمد بن على .
- امتاع الاسماع .

الماوردى : (ت ٤٥٠ هـ : أبوالحسن على بن محمد بن حبيب .
- الأحكام السلطانية (طبعة بيروت ١٩٧٨ م) .

مسلم : (٢٦١ هـ) الامام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى .
- الجامع الصحيح بشرح النووى (طبعة ١٩٨١م) .

النووى الدمشقى : (ت ٦٧٦) الامام أبى زكريا يحيى بن شرف .
- رياض الصالحين (الطبعة الثانية - دمشق) .

ابن هشام : (ت ٣١٨ هـ) أبو محمد عبد الملك .
- السيرة (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) .

الواحدى : (ت ٤٦٨ هـ) أبوالحسن على بن أحمد النيسابورى .
- أسباب النزول (طبعة بيروت) .

اليعقوبى : (ت ٢٨٢ هـ) أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر .
- تاريخ اليعقوبى .
أبو يوسف : (ت ١٨٢ هـ) .
- الخراج (تحقيق محمد ابراهيم البنا - القاهرة)
محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

ثانيا المراجع الحديثة

أرنولد : سير توماس . و .
- الدعوة إلى الإسلام ترجمة (د. حسن ابراهيم وآخرين) .
أحمد ابراهيم الشريف : الدكتور .
- مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول (١٩٦٥) .
اللواء محمد مختار باشا : التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية (الطبعة الأولى) .
جولد تسيهر : اجناس .
- العقيدة والشريعة فى الإسلام (ترجمة د. محمد يوسف موسى وآخرين) .
الخضرى : الشيخ محمد .
- تاريخ التشريع الإسلامى (١٩٦٠ - القاهرة) .

الخربوطلى : الدكتور على حسنى
- الإسلام دين عالمى انسانى (١٩٦٦ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) .
حسن ابراهيم : الدكتور
حسن - تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى (الطبعة السابعة) .
أبو زهرة : الامام محمد .
- العلاقات الدولية فى الإسلام .
شلبى : الدكتور رءوف
- الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى (الطبعة الثالثة دار القلم - الكويت) .
- الدعوة الإسلامية فى عهدها المدنى (الطبعة الأولى دار القلم - الكويت) .
صبحى الصالح : الدكتور .
- النظم الإسلامية (دار العلم للملايين بيروت) .
الصابونى : الشيخ محمد على .
- صفوة التفاسير (طبعة بيروت ١٩٨٠ م) .
عبد الوهاب : الشيخ
خلاف - خلاصة تاريخ التشريع الإسلامى (دار الانصار بالقاهرة) .
عبد الخالق : الدكتور .
النواوى - العلاقات الدولية والنظم القضائية فى الشريعة الإسلامية (١٩٧٤ بيروت) .

عبـد الله :
سراج الدين - سيدنا محمد رسول الله ﷺ (الطبعة الثالثة - حلب) .

كرد على :
- الادارة الإسلامية فى عز العرب (١٩٣٤) .
- الإسلام والحضارة العربية .

محمد رواس :
قلعة جى - موسوعة فقه عبد الله بن مسعود (مركز احياء التراث الإسلامى مكة المكرمة) .
- موسوعة فقه عثمان بن عفان (مركز احياء التراث الإسلامى - مكة المكرمة) .

محمود شاكر :
- التاريخ الإسلامى (الطبعة الثانية ١٩٨٢) .

مصطفى : الدكتور
عبد الواحد - المجتمع الإسلامى الطبعة الثالثة ١٩٨٤) .

الميدانى : الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة
- أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها (الطبعة الأولى) .

نادية حسنى : الدكتوره
- الطائف فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام (دار الشروق جده ١٩٨١) .

النـدوى : أبو الحسن على الحسنى .
- السيرة النبوية (الطبعة الثانية) .

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب

٨٦٨٢ / ١٩٨٩

مطابع الأهرام بكورنيش النيل